

الشوقيات الجزء الثاني

ومن أهم أبواب هذا الجزء باب النسيب، ومن أهم قصائده قصيدة (يا نائح الطلح) ولن أتكلم عن هذه القصيدة^(١) ولا عن ذلك الباب لأني أكره أن أنشر بحثا نشرته من قبل وأنا تكلمت بالتفصيل عن نونية شوقي في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء)^(٢) وتكلمت عن غزليات شوقي^(٣) بالتفصيل في الطبعة الثانية من كتاب (البدائع).

تاريخ القصائد:

شوقي لم يؤرخ قصائده جميعا ولو أنه فعل لأعفى النقد الأدبي من التعب في تعقب أسباب الضعف والقوة في شاعريته العصماء.. والظاهر أن وضوح التواريخ أمام عينيه أفهمه أن الناس لن يحتاجوا عند النظر في قصائده إلى تاريخ والأمر كان كذلك بالفعل فقد كنت أعرف المناسبات التي قيلت فيها تلك القصائد ثم طغت الشواغل فأنستني ما لم أكن أحب أن أنساه، ولعل أبناء شوقي يلاحظون هذا المعنى فيذكرون جميع التواريخ في الطبعة الثانية.

أقدم القصائد المؤرخة قصيدة (طابع البريد) في العاشر من سبتمبر سنة ١٩٠٠ وتليها أبياته في وصف معرض الأزهار والثمار في باريس سنة ١٩٠١

(١) الرسالة الأعداد ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٢.

(٢) الكلام عن قصيدة يا نائح الطلح في هذا الكتاب.

(٣) الكلام عن غزليات شوقي في هذا الكتاب.

ثم وصف المرقص الذي أقيم في قصر عابدين سنة ١٩٠٣ والمرقص الذي تلاه في سنة ١٩٠٤.

وهذه القصائد لا ترتقي إلى منزلة القصائد التي نظمها بعد أن استحصدت قواه الشعرية ولكنها مع ذلك تشهد بأن (شوقي) فطر منذ البداية على إجادة الغناء.

من كل فاكهة زوجان:

في هذا الجزء نرى قصائد فرنسية وقصائد تركية ومصرية وقصائد سورية ولبنانية قصائد وصف بها عواطفه الصراح نحو فرنسا وتركيا ومصر وسورية ولبنان قصائد تقيم أصح البراهين على أن (شوقي) أحب جميع ما عرف من الناس، وهناك ظاهرة يجب النص على تفسيرها الصحيح وهي إفراط شوقي في أخريات أيامه على الإشادة بمحاسن الشام ولبنان فما تفسير هذه الظاهرة النفسية؟؟

كان شوقي لا يحب إلا من يروي شعره وكان هواه مقصورا على من يؤمن بأنه أشعر الناس، وقد وجد في سورية ولبنان جماعات كثيرة تعرف من سرائر شعره أكثر مما يعرف؟ وتذهب في تمجيده إلى آفاق لا يطيف بها الخيال..

وهل أسرف إذا قلت: إن تلتف شوقي في الحديث عن المسيحية يرجع إلى مراعاة عشاق شعره من النصارى العرب؟؟

الإسلام يحكم بكفر من يتناول على المسيح ولكنه لا يفرض على المسلم أن يتغنى بمجد المسيح فكيف جاز لشوقي أن يجعل الثناء على المسيحية من أغراضه الشعرية؟؟

السبب هو ما أقول، هو أن شوقي وجد في نصارى لبنان رجالا يؤمنون بأدبه الرفيع فجازاهم وفاء بوفاء، وقال في المسيح كلاما يقره أدب القرآن، وهل وصف المسيح بأفضل مما وصفه القرآن؟

كان شوقي ينعطف من لبنان إلى سورية بروحانية قليلة الأمثال:

خلفت لبنان جنات النعيم وما	نبئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة	فيها الندى وبها (طي) و(شيان)
نزلت فيها بفتيان جحاحجة	آباؤهم في شباب الدهر غسان
بيض الأسرة ياق فيهم صيد	من (عبد شمس) وإن لم تبق
يا فتية الشام شكرا لا انقضاء له	لو أن إحسانكم يجزيه شكران
ما فوق راحتكم يوم السماح يد	ولا كأوطانكم في البشر أوطان

فما هو الكرم الذي أضفاه الشاميون على شوقي وكان أغنى الناس عن سخاء الأسخياء؟؟ هو الكرم الذي وصفه في قصيدة ثانية حين قال:

رواة قصائدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق

والواضح مما قرأت وما سمعت أن (شوقي) لم يذق طعم النعيم إلا في سورية ولبنان فقد كان في أبناء تلك البلاد الجميلة من يسمع شوقي آلاف

الأبيات من شعره في اليوم الواحد، وكان فيهم من يسمعه قصائد غابت عن وعيه الدقيق، وكان شوقي يتلقى تلك التحيات بالبكاء..

ولبكائه هنالك صورة يتحدث عنها الشاعر أمين نخلة إن صحت رواية الأستاذ صلاح الأسير.

وحب شوقي للشام هو الذي جعل قواطفه أموية:

وللأحاديث ما سادوا وما دانوا	بنو أمية للأبناء ما فتحوا
فهل سألت سرير الغرب ما كانوا	كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم
في كل ناحية ملك وسلطان	عالين كالشمس في أطراف دولتها
سرى به الهم أو عادته أشجان	يا ويح قلبي مها انتاب أرسمهم
واليوم دمعي على الفيحاء هتان	بالأمس قمت على الزهراء أندبهم
ونسبرات (وأنواء) وعقبان	في الأرض منهم سموات وألوية
لوهان في تربه الإبريز ما هانوا	معادن العز قد مال الرغام بهم
ولا زهت بيني العباس بغدان	لولا دمشق لما كانت طليظلة
هل في المصلى أو المحراب مروان	مررت بالمسجد المحزون أسأله
على المنابر أحرار وعبدان	تغير المسجد المحزون واختلفت
إذا تعسالى ولا الأذان آذان	فلا الأذان آذان في منارته

ومع هذا لم ينس شوقي حق العلويين فتحدث عنهم في مواطن كثيرة أشهرها الوطن الذي اختلقه اختلاقا في مسرحية مجنون ليلى إن صدقنا افتراض الدكتور طه حسين.

وخلاصة القول أن عواطف شوقي متنوعة الأصول والفروع فقد سما
بنفسه عن الشعوبية ورأى أن يكون شعره ميراث الشرق على ما فيه من
اختلاف النوازع والميول:

ق وكان العزاء في أحزانه	كان شعري الغناء في فرح الشر
ح وأن تلتقي على أشجانه	قد قضى الله أن يؤلفنا الجر
لمس الشرق جنبه في عمانه	كلما أن بالعراق جريح
تتنزى الليوث في قضبانه	وعلينا كما عليكم حديد
كلنا مشفق على أوطانه	نحن في الفقه بالديار سواء

مصرية شوقي:

وبرغم التنوع في العواطف كان شوقي شاعر القومية المصرية ولعله أول
شاعر جعل من همه وصف مصر في أحلامها وأهوائها وأمانيتها بما هي له أهل،
وأول شاعر ذاق ما في مصر من قرارة النعيم والبؤس وإن كان شفى ما في نفسه
حين قال في غمز الحكومة التي سمحت بنفيه في أوائل الحرب الماضية.

(وطن توالت عليه حكومات وحكومات تقول فتجد وتعمل فتعزل ولا
تحسن من ضروب الإصلاح إلا أن تولى وتعزل).

حكاية المستر روزفلت:

هو رئيس أسبق للولايات المتحدة وكان قد زار مصر في سنة ١٩١١ أو
قريبا من ذلك فما يتسع وقتي لتحديد التاريخ.

والظاهر أن روزفلت السابق فاه عند زيارته للسودان بكلام لا يرتضيه المصريون فيرد عليه الشيخ علي يوسف في جريدة المؤيد بمقال كان آية في البيان ثم اندفع شوقي فحاوره بأسلوب غير ذلك الأسلوب، اندفع فحدثه عن عظمة مصر الممثلة في قصر أنس الوجود..

أيها المتحني بأسوان دارا كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف لا تحاول من آية الدهر غضا

وهي قصيدة نفيسة المعاني وهي من عيون الشوقيات.

قصيدة النيل:

هي قافية في ١٥٣ بيتا أرسلها المستشرق مرجوليوت مع مقدمة نثرية قلقة الأسجاع، قصيدة يرجع عهدهما فيما افترض إلى أيام حرب البلقان، فهي إذن من غرر شعره القديم، وليس من العدل أن نجاري الأستاذ المازني في القول بأن شاعرية شوقي لم تتفتح إلا بعد النفي فأنا أرى أن قصيدة الأندلس الجديدة التي قالها بمناسبة سقوط أدرنه في سنة ١٩١٢ لا تقل جودة عن أبرع ما جاد به خاطره في النفي وبعد النفي، والحق أن (شوقي) نضج في وقت مبكر فقصيدته التي قالها في المؤتمر الشرقي بمدينة جنيف سنة ١٨٩٤ تعد من القصائد الجياد وهي الباكورة التي بشرت بأن سيكون له مقام بين شعراء القصص التاريخي.

ونرجع إلى قصيدة النيل فنقول:

أراد شوقي بهذه القصيدة تمجيد العنصرية المصرية ممثلة في النيل السعيد، وقد رحب الشاعر بالألفاظ الجارية على السنة الفلاحين في أعمال السقي

والغرس والحصاد وطاف به الخيال حول عهود التاريخ فشرح ما مر بهذه البلاد
من عقائد وديانات شرحها برفق لأنه لم يرد النقد وإنما أراد التسجيل .

ولو شئت لقلت: إنه اعتذر عن ظلم الفراعين فقد عد إرهابهم للشعب في
بناء الهياكل بابا من المجد المرموق.

هي من بناء الظلم إلا أنه
لم يرهق الأمم الملوك بمثلها .
يبيض وجه الظلم منه ويشرق
مجدا لهم يبقى وذكرى يعبق

ويرى الشاعر أن الأرض والسماء لا تبيدان إلا برجفة القيامة، أما قيامة
مصر فهي جفاف النيل الذي خاطبه الشاعر فقال:

من أي عهد في القرى تدفق
ومن السماء نزلت أم فجرت من
وبأي عين أم بأية مزنة
وبأي نول أنت ناسج بردة
تسود دياجاً إذا فارقتها
في كل آونة تبدل صبغة
أنت الدهور عليك مهدك مترع
تسقي وتطعم لا إنائك ضائق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا
وبأي كف في المدائن تغدق
عليها الجنان جدوا ولا تترق
أم أي طوفان تفيض وتفهب
للضفتين جديدها لا يخلق
فإذا حضرت اخضوضر
عجبا وأنت الصابغ المتأنق
وحياضك الشرق الشهية دفع
بالواردين ولا خوانك ينفق
والأرض تغرقها فيحيا المفرق

ونظر الشاعر فرأى الوثنية المصرية تأمر بعبادة النيل فشاء له الأدب أن
يوجه تلك العبادة توجيهها يرفع عنها إصر الشرك بواجب الوجود:

دين الأوائل فيك دين مروءة
لم لا يؤله من يقوت ويرزق

لو أن مخلوقا يؤله لم تكن لسواك مرتبة الألوهة تخلق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة إن العبادة خشية وتعلق

ثم نظر الشاعر فرأى أن المصريين القدماء كانوا يهتمون ببناء القبور
أضعاف ما يهتمون ببناء البيوت فاتخذ من ذلك دليلا على حبهم للخلود:

بلغوا الحقيقة من حياة علمها حجب مكثفة وسر مغلق
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا دون الخلود سعادة تتحقق
يننون للدنيا كما تبني لهم خربا غراب البين فيها ينعق
فقصورهم كوخ وبيت بداوة وقبورهم صرح أشم وجوستق

ولم ينكر الشاعر في تفنيد خرافة (عروس النيل) وإنما جعلها حقيقة شرعية
حين قال:

ونجيبة بين الطفولة والصبا عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف إليك غاية حظها والحظ إن بلغ النهاية موبق
لاقت أعراسا ولاقت مآتما كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق

إلى آخر ما قال في هذا المعنى الدقيق. وقد اعتذر عن أسطورة (أبيس)
فجعلها نوعا من الوفاء للدين:

قوم وقار الدين في أخلاقهم والشعب ما يعتاد أو يتخلق

ولم يفت الشاعر أن يسجل في أبيات كريمة أن مصر التي كانت موثلا
للديانة الفرعونية هي مصر التي آوت الديانة الموسوية والديانة العيسوية
والديانة المحمدية، ولم يفته أيضا أن ينص على عدالة عمر بن الخطاب الذي

ضرب ابن عمرو بن العاص بالسوط حين سمع أنه أهان أحد الأقباط وقال في ذلك كلمته التاريخية: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا).

ثم ماذا؟؟

ثم يختتم شوقي قصيدة النيل بأبيات تفسر معنى الوطنية فالناس عنده يحبون الوطن لأنه مصدر سعادتهم لأنه المستقر الأمين لأبنائهم:

ما يحملنا الهوى لك أفرخ سنطير عنها وهي عندك ترزق
تهفو إليهم في التراب قلوبنا وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم والله جل جلاله منا ومنك بهم أبر وأرفق

مصاير الأيام:-

هذا عنوان قصيدة صور بها شوقي صروف الحياة من عهد الطفولة إلى عهد المشيب ابتداء الشاعر بحياة الطفل في المكتب والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية وهي كذلك في عرف المعارف، فهي تقول: المكاتب العامة بعد أن كانت تقول: المدارس الأولية وكان العرف المدرسي قبل سنين يعمم كلمة المكتب بحيث تشمل حجرة الدرس ولو كانت في مدرسة عالية.

وشوقي في هذه القصيدة يتمثل حياة الأطفال ويحسها أصدق إحساس:

ألا حبذا صحبة المكتب وأحبب بأيامها أحبب
ويا حبذا صبية يلعبو ن عنان الحياة عليهم صبي
كأنهمو بسيمات الحياة وأنفاس ريحانها الطيب

وعبارة (عنان الحياة عليهم صبي) عبارة طريفة والمراد بصبا العنان هو الرقة واللين ثم يتلفت الشاعر فيرى أن الأطفال لا يفرحون بالمكتب كل الفرح ولا يرتاحون إليه كل الارتياح وكيف والأمر كما قال:

يسراح ويغدى بهم كالقطيع على مشرق الشمس والمغرب
إلى مرتع ألفوا غيره وراع غريب العصا أجنبي

وهذان البيتان من أروع ما صورت به حياة الأطفال في رعاية المعلمين..

وصور اختلاف قواهم باختلاف أسنانهم فقال:

فراخ بأيك فمن ناهض يروض الجناح ومن أزغب

وصور غفلتهم عن المصير المرتقب فقال:

مقاعدهم من جناح الزمان ن وما علموا خطر المركب

وقد جاد الوحي على شوقي بيتين في غاية من العذوبة والصدق أما البيت الأول فهو قوله في تلوين حيوية الأطفال:

عصافير عند تهجي الدرو س مهار عراييد في الملعب

وأما البيت الثاني فهو قوله في اختلاف الإحساس باختلاف أوقات الجرس:

لهم جرس مطرب في السرا ح وليس إذا جدد بالمطرب

وهل ينسى المدرسون لا التلاميذ أن جرس الانصراف محبوب الرنين، وأن

جرس الدرس بغيض الضجيج؟

وأذكر من باب الفكاهة أني كنت أشرح لأحد نظار المدارس قيمة الطرافة في هذا البيت فقال: إن شوقي نسي جرس الغداء..

ثم قال شوقي:

جنون الحداثة من حولهم تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبد بعقل الصبي وأعدى المؤدب حتى صبي

والغرض قد التوى على شوقي في هذين البيتين بعض الالتواء لأنه ساوى بين الجنونين: جنون الأطفال وجنون المعلمين.

وأخطأ شوقي في اختيار كلمة (المؤدب) والصواب أن يقول (المعلم) فهناك فرق بين التأديب والتعليم فالتأديب هو التثقيف والتعليم هو الترتيب وفي كلام الجاحظ عبارة تفصح عن الفرق بين المؤدب والمعلم وتدل بوضوح على أن المؤدبين أكبر من المعلمين.

ثم نقل شوقي تلاميذه من المكتب إلى المدرسة ثم إلى الحياة فقال:

فيا ويجهم هل أحسوا الحيا ة لقد لعبوا وهي لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون كتجربة الطب في الأرنب
سقتهم بسم جرى في الأصول وروى الفروع ولم ينضب
ودار الزمان فдал الصبا وشب الصغار عن المكتب
وجد الطلاب وكد الشبا ب وأوغل في الصعب فالأصعب
وعادت نواغم أيامه سنين من الدأب المنصب
وعذب بالعلم طلابه وغصوا بمنهله الأعذب

والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة التي قال فيها شوقي:

وكم منجب في تلقي الدروس تلقى الحياة فلم ينجب

فأرجو أن يلتفت إليها المتسابقون لأنها من غرر الشوقيات..

قصائد سورية:

في المقال السالف نصصنا على السر في اهتمام شوقي بأخبار سورية ولبنان، فلنذكر اليوم أن الشاعر تحدث عن سورية في قصائد جياذ، منها القصيدة التي تحدث فيها عن الشهداء في سبيل الاستقلال:

بنى سورية اطرحوا الأمانى	خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحريّة الزهراء عنا	وعنكم هل أذاقتنا الوصالا
وهل نلنا كلانا اليوم إلا	عراقيب المواعد والمطالا
عرفتم مهرها فمهرتموها	دما صبغ السباسب والدغالا
وقمتم دونها حتى خضبتم	هوادجها الشريفة والحجالا
دعوا في الناس مفتونا جانا	يقول: الحرب قد كانت وبالا
أطلب حقهـم بالروح قوم	فتسمع قائلًا ركبوا الضلالا

ومنها القصيدة الأموية وقد أشرنا إليها في المقالة الماضية ومنها القصيد الذي لا يطاوله قصيد فما نظم شاعر أروع مما نظم شوقي في نكبة دمشق ولا ارتاع شاعر كما ارتاع شوقي لنكبة دمشق:

لحاهها الله أنباء توالت	على سمع الولي بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد	ويحملها إلى الأفاق برق

تكدار لروعة الأحداث فيها
وقيل معالم التاريخ دكت
أست دمشق للإسلام ظئرا
ومرضعة الأبوة لا تعق

وفي هذه القصيدة يقول شوقي في وصف ما صنعت النكبة بنساء دمشق:

برزن وفي نواحي الأيك نار
إذا رمى السلامة من طريق
بليل للقدائف والمنايا
إذا عصف الحديد احمر أفق
وخلف الأيك أفراخ تزق
أتت من دونه للموت طرق
وراء سمائه خطف وصعق
على جنباته واسود أفق

ثم توحى إليه ملائكة الشعر أن يقول:

بنى سورية اطرّحوا الأماني
فمن خدع السياسة أن تغروا
وكم صيد بدالك من ذليل
نصحت ونحن مختلفون دارا
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد
وقفتم بين موت أو حياة
ومن يسقى ويشرب بالمنايا
ففي القتل لأجيال حياة
وللحرية الحمراء باب
وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
بالقاب الإمارة وهي رق
كما مالت من المصلوب عنق
ولكن كلنا في الهيم شرق
بيان غير مختلف ونطق
فإن رمت نعيم الدهر فاشقوا
إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
وفي الأسرى فدى لهم وعتق
بكل يد مضرجة يدق

هل يحتاج هذا الشعر إلى شرح؟ هيهات!

قصائد لبنانية:

المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقي السورية وقصائده اللبنانية فهو في الشام يعاني نارين: الذكريات للأجداد الأموية ونار الحقد على الاستعمار الفرنسي وقد جاهده السوريون أصدق الجهاد وعانوا في دفعه مكاره لا تطاق.

ولا كذلك حال شوقي في لبنان فهو هنالك شاعر يصدق فوق أفنان الجمال، ولا يرى ما يسوءه من الاضطهاد لأن الظواهر كانت تزعم أن الفرنسيين واللبنانيين على وفاق.

كان لبنان لعهد زيارات شوقي وطن الشعر والجمال والأمان والرخاء وكان اللبنانيون على فطرتهم الأصيلة من الترحيب الصادق بكل من يزور وطنهم فأنس بهم شوقي كل الأنس واطمأن إليهم كل الاطمئنان.

أيام شوقي في سورية كانت أيام جهاد أما أيامه في لبنان فكانت أيام شهاد.

كان شوقي يكره أن يقول أن شبابه إلى أفول وإن جاوز الستين ثم شاء شيطانه أن ينقله إلى زحلة وطن الرحيق ومعه المحامي فكري أباطة والموسيقار محمد عبد الوهاب.

وفي لحظة من لحظات الصراع بين العيون والقلوب هان عليه أن يبكي الشباب الذاهب فيقول:

ولمت من طرق الملاح شباكي^(١)
 أمشي مكانها على الأشواك
 لما تلفت جهشة المتباكي
 فإذا أهيب به فليس بشاك
 من بعد طول تناول وفكاك
 بعد الشباب عزيزة الإدراك
 لفتوة أو فضلة لعراك
 ونشد شد العصبة الفتاك
 ما يبعث الناقوس في النساك

شيعت أحلامي بقلب باك
 ورجعت أدراج الشباب وورده
 ويجانبي واه كأن خفوقه
 شاكي السلاح إذا خلا بصلوعه
 قد راعه أني طويت حبائلي
 ويح ابن جنبي، كل غاية لذة
 لم تبق منا يا فؤاد بقية
 كنا إذا صفقت نستبق الهوى
 واليوم تبعث في حين تمزني

وكان الرأي أن تلقى هذه القصيدة في حفلة أعدها أهل زحلة لتكريم شوقي وكان الأستاذ فكري أباطة هو الأثير عند شوقي حينذاك في إلقاء شعره البليغ، فاعترض الموسيقار عبد الوهاب قائلاً: إن هذه القصيدة للغناء، وليست للإلقاء، ثم صدح بصوته الرنان:

ما يشبه الأحلام من ذكراك
 والذكريات صدى السنين الحاكي
 حتى ترفق ساعدي فطواك
 جمع الزمان فكان يوم لقاك^(٢)

يا جارة الوادي طربت وعادني
 مثلت في الذكرى هواك وفي
 لم أدر ما طيب العناق على الهوى
 لا أمس من عمر الزمان ولا غد

وفي هذه القصيدة يقول شوقي على عادته في التخوف من محجب الغيوب:

(١) في الديوان لمحت وهي غلطة مطبعية لم ينتبه لها أكثر من نقلوا هذه القصيدة عن الديوان.

(٢) هذه القطعة مشهورة جداً، ولها ترتيب غير هذا الترتيب.

لبنان ردتني إليك من النوى
نمشي عليها فوق كل فجاءة
أقدار سير للحياة دراك
كالطير فوق مكاسم الأشارك

مصراع شوقي:

في مكتبة الدكتور طه بك حسين ظرف مختوم كتب عليه (مصراع شوقي)
فما الذي يحتويه الظرف المختوم؟

في إحدى العصريات من صيف سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦ حدثني
الدكتور طه حسين أن (شوقي) أسف أبشع الأسف بقصيدة نشرتها جريدة
المقطم عن هوى شوقي في لبنان.

وأعترف أنني كنت أرى ما يرى الدكتور طه حسين في تلك القصيدة
يومذاك فقد نشرت في المقطم على أسوأ حال من التحريف.

ثم دارت الأيام وعرفنا أنها أجود مما كنا نتوهم وأنها في كل خاطر وعلى كل
لسان في لبنان ثم دارت الأيام مرة ثانية فعرفنا أن الأريحية اللبنانية سمحت بأن
يكثر من يقولون: إن شوقي عناهم بذلك القصيد، الذي يهتف:

وأغن أكحل من مها (بكفية)
لبنان دارته وفيه كناسه
السلسبيل من الجداول ورده
دخل الكنيسة فارتقت فلم يطل
فازور غضبانا وأعرض ناقرا
فصرفت تلعباي إلى أترابه
علقت محاجر دمي وعلقته
بين القنا الخطار خط نجته
والأس من خضر الخمائل قوته
فأتييت دون طريقه فزحمته
حال من الغيد الملاح عرفته
وزعمتهن لبساتني فأغرته

وقعت عليه جنائلي فقصته
وأثيت من سحر البيان فصدته
لابن البتول وللصلاة وهبته

فمشى إلي وليس أول جوذر
قد جاء من سحر الجفون فصادني
لما ظفرت به على حرم الهدى

إلى آخر القصيدة..

شعور شوقي بالوجود:

بين قصائد شوقي في سورية ولبنان وقصائده في البلاد التركية والفرنسية
آماد طوال ومع هذا نجد أن إحساسه بالوجود على اختلاف الأزمان غاية في
القوة والبريق، وهل ننسى أن الجرائد المصرية لم تجد عند مصرع باريس في
الحرب الحاضرة غير ما توجع به شوقي لباريس في الحرب الماضية:

ولقد أقول وأدعي منهلة
زعموك دار خلاعة ومجانة
إن كنت للشهوات ريفالاعلا
باريس لم يعرفك من يغزوك
ودعارة يا إفك ما زعموك
شهوآتمن مرويات فيك

ومن هذا الكلام نعرف أن للعلا شهوات أعنف من شهوات الأهواء..

وقصيدة شوقي في غاية بولونيا قديمة العهد وهي مع ذلك لطيفة النفس
ذكية الروح.. وأبياته في (شبه أمينة) أبيات لطاف، وقد رأيت بعيني صورة
(أمينة) في غرف كثيرة من دار شوقي بدون استثناء لحجرة الاستقبال وهي
البنية التي قال فيها ذلك الأب الحنان:

وكم قد خلت من أبيتك الجيوب
وليست جيوبك بالخاليه

ثم ماذا؟

ثم يبقى الحديث عن القصيدة التي حفظها حافظ إبراهيم مع تفاصيل
يوجبها التاريخ لمعرفة سرائر هذين الشعارين.

توت عنخ آمون:

في الجزء الثاني من الشوقيات قصيدتان في توت عنخ آمون، وهاتين
القصيدتين قيمة عظيمة فقد صرح شوقي نفسه أن أعظم قصائده هي النونية
الأمونية:

درجت على الكنز القرون وأتت على السدن السنون

أما حافظ إبراهيم فكان يرى أن أعظم قصيدة نظمها شوقي هي البائية
الكارنارفونية:

في الموت ما أعيأ وفي أسبابه كل امرئ رهن بطي كتابه

فما حديث هذه القصائد الجياد؟

كان اللورد كارنارفون من المولعين بالآثار المصرية، وقد سمح له غناه أن
ينفق على الحفريات بسخاء فكلف المستر كارتر أن يحفر في وادي الملوك
بالأقصر عساه يبتدي إلى مقبرة لم يبتد إليها اللصوص في العصور الخوالي.

وبعد متاعب كادت تودي بمصير اللورد كارنارفون عشر المستر كارتر على

مقبرة توت عنخ آمون في سنة ١٩٢٢.

وقد التفت الباحثون من الأوربيين والأمريكيين إلى هذا الكشف أعظم التفات وقدمت التهاني إلى كارتر وكارنارفون من الهيئات العلمية في الغرب والشرق ودعيت الصحافة إلى معاينة ذلك الكشف الخطير فذهب لمعاينته ثلاثة من الصحفيين: زكي مبارك مندوبا عن جريدة الأفكار والدكتور هيكل مندوبا عن جريدة السياسة والأستاذ المازني مندوبا عن جريدة الأخبار، ولن أنسى أن المستر كارتر حدثنا عن السبب في نقص بعض محتويات المقبرة وكان الرأي عنده أن أيدي اللصوص قد امتدت إليها في عهد الأسرة العشرين. فكتبت في الأفكار أقول: إني أرجح أنها سرقت في القرن العشرين ولم يفتم مراسل التيمس أن يبرق إلى جريدته بهذا التلميح فنشرته بدون تسويق، لتداعب به اللورد كارنارفون وكانت النتيجة أن يمتنع المستر كارتر عن السماح للصحفيين بزيارة المقبرة ولهذا الامتناع صدى في شعر شوقي سنشير إليه قبل ختام هذا الحديث.

لعنة الفراعنة:

هنالك خرافة تقول بأن الفراعنة يلعنون من ينبش قبورهم بعد الموت. ولهذا الخرافة أصل فقد وجد على كثير من القبور المصرية والكلدانية دعوات حرار على من ينبشون قبور الملوك، وفي القبور المصرية ما يسمى الرصد وهو تمثال يقام في مدخل القبر لتخويف اللصوص وهو حقا مخيف لأن القدماء كانوا يتوهمون أنه مزود بالسلاح والروح، وأنه يقتل من يدخل القبر بدون استئذان، وهل يستأذن اللصوص؟ فماذا صنعت لعنة الفراعنة باللورد

كارنارفون؟ أ برق إليه المستر كارتير فحضر على عجل ليشهد الكشف الجديد
وبعد أيام لسعته بعوضة وهو نائم في خيمة بجوار المقبرة فمات.

حقيقة أغرب من الخيال:

كان اللورد كارنارفون أهدى إلى بنت ملك الإنجليز عقدا من العقود
المصرية القديمة ففرحت به فرحا عظيما وأثابت مهديه أجزل الثواب فلما
سمعت أن بعوضة لسعته فمات نزع العقد من جيدها لثلا تلحقها لعنة
الفراعين.

وفي قصة البعوضة يقول شوقي:

صادت بقارعة الصعيد بعوضة	في الجوصائد بازه وعقابه
وأصاب خرطوم الذبابة صفحة	خلقت لسيف الهند أو لذبابه
طارت بخافية القضاء ورأرات	بكريمتيه ولا مست بلعابه

ثم يعلل شوقي تلك الحادثة تعليلا علميا فيذكر أنها من نتائج الوهم الذي
يضعف الأعصاب؟

لا تسمعن لعصبة الأرواح ما	قالوا يباطل علمهم وكذابه
الروح للرحمن جل جلاله	هي من ضغائن علمه وغيابه
غلبوا على أعصابهم فتوهموا	أوهام مغلوب على أعصابه

بين حافظ وشوقي:

كان التنافس بين حافظ وشوقي قد وصل إلى أبعد الحدود، وزاد في خطر ذلك التنافس أن حافظا كان رجلا عذب الروح وكانت له مع الصحفيين صلات يؤرث بها أحقادهم على شوقي حين يشاء..

وما أذكر غلبة شوقي على حافظ إلا تعجبت، فقد كان حافظ غاية في الذكاء واللوزعية وكان علمه بتاريخ العرب وآدابهم علما يفوق الوصف وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية أعجوبة الأعاجيب، فكيف تفوق عليه شوقي وكان رجلا يدل مظهره وحديثه على أنه فرد من سواد الناس لا يمتاز بعبقرية ولا نبوغ؟

أكاد أجزم بأن (شهوة الحديث) هي التي أضعفت شاعرية حافظ فقط كان كثير الحديث وبالحديث وصل إلى ألوف القلوب وبالحديث ضاع، لأن الحديث يأخذ من القوى النفسية طاقات لا تصلح بعدها للغناء.

لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقي من الثروة الشعرية ولكان من الممكن أن يعد من أقطاب التاريخ الأدبي في هذا الباب ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشئون.

أما شوقي فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالمدخر من قواه النفسية وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث فظفرت جهوده بالخلود.

كان حافظ يحدث من يلقاه بإطناب وإسهاب فلا يتقضي اليوم إلا وهو متهالك من فرط الإعياء، وكان شوقي يهرب من الناس حين يشرع في النظم فلا تراه إلا هائما على وجهه من طريق إلى طريق وفي حال تنذر بالجنون.

كان حافظ يطيل محاورتي حين كنت موظفا بدار الكتب المصرية في سنة ١٩٢٥ فبدا للمرحوم أحمد نسيم أن يدلني على أحد مقاتله النفسية فحدثني أن أعظم ما يغيظ حافظا أن تجربه أنك رأيت شوقي ينتقل من ترام إلى ترام وفي يده سيجارة وعلى وجهه أمارات الدهول.

وحلني النزق على تجربة هذه الوصية فأخبرت حافظا أني رأيت (شوقي) كثير التنقل في الشوارع وفي حال يغلب عليه الانفعال فصرخ حافظ. في أي غرض يعالج الشعر هذا المخبول أنه يكره أن يقترن اسمي باسمه، مع أن الناس ظلوا يقولون في أكثر من عشرين سنة: شوقي وحافظ، كما يقولون بيض وسميط.

بين الظلم والعدل:

كانت الأقدار سمحت بأن تنعقد بيني وبين شوقي مودة دامت نحو سنتين وفي تلك الأيام عرفت من أحوال شوقي أشياء، ومن المؤكد أنه من أعظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي فقد كانت أستاذيته في نقد المجتمع مضرب الأمثال وكان روحه من ألطف الأرواح. وفي لحظة من لحظات الحوار حول مقاصد الشعراء سألته عن قصيدة حافظ في مجاوبته وهو منفي بالأندلس فأجاب وقد تربد وجهه بالغيظ: أنا لا أروي غير شعري.

فقلت: ومن الوفاء للأدب أن تروي شعر من يناجيك وأنت غريب.

وفي اليوم التالي لقيت حافظا فسألته برفق: أتخفظ شيئا من شعر شوقي؟

فأجاب: لقد قتلتني شوقي حين قال في اللورد كارنارفون:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحباً إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقري حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

أحفاد العبقريين:

ومع هذا فأحقاد العبقريين كأحقاد الأطفال تذوب بعد ليال ففي سنة

١٩٢٧ أقيمت حفلة عربية لتكريم شوقي فأنشد حافظ قصيدا جاء فيه:

أمير القوافي قد أتيت مباعيا وهذي وفود الشرق قد بايعت

فدعاه شوقي وقبل جبينه والدمع في عينيه.. ثم شاء القدر أن يموت حافظ

قبل شوقي بأسابيع فقال شوقي بيكيه:

قد كنت أوثر أن تقول رئائي يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة قدر وكل منية بقضاء
وودت لو أني فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام وبينني مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ في الشرق واسمك أرفع الأسماء
بالأمس قد حليتني بقصيدة غراء تحفظ كاليد البيضاء

غيظ الحسود لها وقمت بشكرها وكما علمت مودتي ووفائي

وهي أعظم قصيدة قالها شوقي قبيل الموت. ولعلها خير ما جاد به خاطره برفق وحنان^(١).

الأعياب الحظوظ:

مات حافظ وشوقي في موسم واحد هو صيف سنة ١٩٣٢ فارتجت الأقطار العربية لموت شاعرين كانت إليهما قيثاره الغناء في أعوام تزيد على الثلاثين.

وفي خريف تلك السنة بدا لإحدى شركات السجائر أن تخرج علبة باسم شوقي وعلبة باسم حافظ فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش وثمان العلبة الثانية أربعة قروش. وسعيد الدنيا سعيد الآخرة كما يقولون.

توضيح:

لهذا الاستطراد غاية هي خلق جو يفسر ما كان بين شوقي وحافظ وما يليق بأديب أن يجهل ما كان بين حافظ وشوقي من مصاولات عادت على الشعر بأطيب الثمرات.

(١) كان شوقي في أخريات أيامه مصابا برعشة عنيفة تتمثل في اضطراب يديه بدون انقطاع، ومع هذا فقصيدته في رثاء حافظ لا تدل على تعب أو إعياء، أما آخر قصيدة نظمها فهي قصيدته في افتتاح مصنع مشروع القرش، وبعد أن صفق المحفلون وأطالوا التصفيق لقصيدة شوقي كان زادهم عند الانصراف أن يتلقوا ملحقا لجريدة الجهاد تنعي به شوقي، فعرفوا أن تصفيقهم كان تحية تلقاها الشاعر وهو على سرير الموت.. يرحمك الله يا شوقي.

النونية الأمونية:

مراجعة هذه القصيدة بتأمل وتدقيق ترينا كيف قال شوقي أنها أعظم ما خطته يمناه فقد حاور الحياة وحاور الوجود بأسلوب الأديب الفيلسوف، وزعم خياله أن الموتى لو شعروا بها في قبر ذلك الملك لنبشوه بدون استحياء ثم مضى فصور حياة ذلك الفرعون في حدود التصاوير المرسومة بجدران قبره المطموس.

والتلطف مع شوقي لا ينسيني واجب النقد الأدبي وهذا الواجب يدعوني إلى النص على أن (شوقي أسرف) في وصف مقبرة توت عنخ آمون فقد ذكر لها خصائص غير حقيقية، خصائص لم ترها عيناى حين زرتها قبل عشرين عاما ولعل شوقي لم يرها بعينه قبل نظم هذا القصيد وإنما تمثل ما رآه في بعض المقابر الفرعونية فقال ما قال بلا تحفظ ولا احتراس.

ثورة الجيل:

في هذه النونية تحدث شوقي عن عصر توت عنخ آمون وعده عهد الفرد اللعين ليجوز له في قصيدة ثانية أن يقول أن الدستور جعل عصره دون عصر فؤاد.

والقصيدة الثانية تحفة أدبية تخيل فيها الشاعر أن توت عنخ آمون:

سافر أربعين قرنا عدها	حتى أتى الدار فألقى عندها
انجلترا وجيشها ولوردها	مسلولة الهندي تحمي هندها
قامت على السودان تحمي سدها	وركزت دون القنائة بندها

فقال والحسرة ما أشدها
وليت عيني لم تفارق رقدتها
مصر فتاتي لم توقر جدتها
وخلطت ظباءها وأسدتها
قد سحبت على جلالي بردها
ليت جدار القمر ما تدهدها
قم لبنى يا بنتئور ما دها
دقت وراء مضجعي جازيندها
وسكب الساقى الطلا وبدها
ليت جلال الموت كان صدها

وهذا شعر يفسده الشرح وهو أيضا شعر لا يقوله غير شوقي إمام الصياغة الشعرية وأصدق من تغنى بأجماد النيل وفي هذه القصيدة نص شوقي على أن:

مصر الفتاة بلغت أشدها
ولعبت على الحبال وحدها
فأرسلت دهاتها ولدها
وبعثت للبرلمان جندها
وأثبت الدم الزكي رشدها
وجربت أرخاءها وشدها
في الغرب سدوا عنده مسدها
وحشدت للمهرجان حشدها

ثم أشار إلى معارضة المستر كارتر في زيارة المقبرة فقال يخاطب الفرعون:

لحدك ودته النجوم لحدها
سلطانها وعزها ورغدها
أبوابك اللائي قصدنا قصدها
لولا جهود لا نريد جحدها
أرئتنا الدنيا به وجددها
وكيف يعطى المتقون خلددها
كارتر في وجه الوفود ردها
وحرمة من قريبك استمددها
وابعث له من البعوض نكدها
قلت لك اضرب يده وقدها

والقارئ يفهم أنه يشير إلى البعوض الذي صرع اللورد كارنارفون وهو بعوض ظالم فقد حدثنا شوقي في البائية أن اللورد كارنارفون أهدى إلى توت

عنخ آمون هدية أعظم من الهيرمين، لأنه عرف به أمما لم يعرفها عصر الفراعين.
ألم تكتب فيه عشرات البحوث في بلاد الأمريكان؟

خلاصة البحث:

قد فرغت من الكلام عن عيون الجزء الثاني أيضا من الشوقيات في الحدود التي يسمح بها الوقت وقد سكت عن سينية شوقي^(١) في معارضة سينية البحري لأنني تحدثت عنها بإطناب في كتاب (الموازنة بين الشعراء) وأنا أكره الحديث المعاد.

أما بعد فما خلاصة هذا البحث؟

هو إشارة ورموز لا ينتفع بها غير من يقرأ الشوقيات بإمعان، والنقد الأدبي توجيه لا تلخيص، والله ولي التوفيق.

(١) الموازنة بين سينية شوقي في معارضة سينية البحري في هذا الكتاب.

نقد باب النسيب

على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ وتحت عنوان (أحمد شوقي أمير الشعراء) كتب زكي مبارك يقول:

كنت أرسل إلى البلاغ مقالات من باريس فأرسلت ثلاث مقالات في نقد الجزء الثاني من الشوقيات، وكان الدكتور زكي حسن قدمه إلي لأطلع عليه، فلم يعجبني باب النسيب فكتبت تلك المقالات.

ويمضي زكي مبارك فيقول: ولكن خطابا يصل بالبريد الجوي بخط الأستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول:

إن (شوقي) مريض ونقد شعره من كاتب في مثل منزلتك الأدبية يؤذيه وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقالات بنصها الأصيل).

وبعد ذلك نشرت تلك المقالات في جريدة البلاغ عن (الغزل في شعر شوقي) في شهري يوليه وأغسطس سنة ١٩٣١، والشاعر شوقي ما زال على قيد الحياة. وهذه الصفحات نجدها في الطبعة الثانية من كتاب زكي مبارك (البدائع).

والآن مع زكي مبارك ونقد باب النسيب في الشوقيات.

الغزل في شعر شوقي

رسائل ثلاث في نقد الغزل في شعر شوقي كتبها المؤلف في باريس في شهر

مارس ١٩٣١

-١-

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين في باريس فأعارني الجزء الثاني من الشوقيات، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب، وإنما اقتصرت على هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان، فمن الخير إذن ألا يتكرر ما يكتب، وإن كان لكل منا مذهبه الخاص.

ولأقيد أولاً أن (شوقي) مسئول عن ذلك الشرح الموجز الذي ذيلت به الشوقيات، فهو في أغلب الأحيان شرح ضعيف وقد يتعدى الضعف أحيانا إلى الغلط الشنيع. ومن أمثلة ذلك التعليق على قوله:

لوجلوا حسنك أو غنوا به للبيد في الثمانين صبا

فقد جاء في الشرح ما نصه: هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي قال حين بلغ الثمانين وقد شكاً ثقل السمع وتهدم الشيخوخة:

إن الثمانين وبلغتهبا قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذي ظل يراجع هذا الجزء من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد، فليس هذا البيت من شعر لبيد وإنما هو من قصيدة

لأبي محلم الشيباني - إن لم تخني الذاكرة - والقصيدة برمتها مثبتة في الجزء الأول من أمالي القالي.

إن شوقي يعرف رأيي في شعره، وقد أكون أول من أنصفه بين النقاد المعاصرين، فهو إذن خليق بأن يفترض أني لا أتحمّل عليه إن قلت: إن أضعف الجوانب في ديوانه هو باب النسب.

لقد عتب علي مرة لأنني لم أختر من شعره في كتاب (مدامع العشاق) غير أربعة أبيات، ولعله يفهم أن عذري في ذلك مقبول لأن شعره في الغزل أضعف من أن يمس القلوب؛ فضلاً عن أن يفصح عن مدامع العشاق.

إن النسب في جملة يرجع إلى عنصرين؛ الأول: وصف ما يجده المحب من لوعة الشوق، والثاني: وصف ما في المحبوب من الملاحظة والجمال، ويمكن أن يقال: إن شعر شوقي خال من أوصاف الوجد المبرح لأنه عاش مقسم القلب، موزع الإحساس. فكان ينتقل من حب إلى حب، ومن حسن إلى حسن، فلم يقع لذلك في وقدة الهجر أو أسر الصدود.

ذلك اعتذارنا عنه، لأننا نؤثر الرفق بشاعرنا المجيد، ولو آثرنا الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القلب ودقة الإحساس بحيث تنتزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه من أسراب الملاح.

إنها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع إلا لمن يحبون في قصد وفي عفاف، هي فكرة ساذجة دافعت عنها فيما سلف. أما الواقع فهو أن الشاعر

المرهف الإحساس يتزايد بلاؤه وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الصبابة ومطالعة الجمال.

الشاعر أشقى الناس بشاعريته، لأنه أعرفهم بخطر ما تبذع الطبيعة من أسباب الحسن والفتون، وقد أتيح لشوقي أن يشهد من روعة الجمال ما يندر أن يتاح نظيره لرجل سواه، ولكنه لم يقل شيئاً عن القلوب التي أشقتها السعادة في الحب، ولم يتحدث عن آلام السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم في كوثر الوصال.

إنه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون: فحيرة الشاعر اليوم هي حيرة أسلافه منذ قرون، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقيد. وهذا الحسن - إن لم يلفظ الله - ماضٍ في الفتك بلفائف القلوب، وقد جدت للأرواح أزمات جديدة، ومطامح جديدة، لم يشق بها الأولون فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظما والالتياح.

وهذه المؤاخذة توجه إلى الأدب في جملته، لأن قراء العربية في هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم، وجهت مشاعرهم، عن فهم ما في هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية، والأذكياء منهم جنباء يكتبون غير ما يشعرون، وهذا هو السر في انحطاط الأدب العربي الحديث.. وإلا فأين في مصر الشاعر أو الكاتب

الذي استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال إلى هدى، أو من هدى إلى ضلال.

أكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشباههم من أدعياء الخواص، وقد وقفت مطامح كثير من حملة الأقلام عند تلك الغايات الصغيرة، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من مفكري القراء في حيرة داجية سوداء، حيث لا يجدون من يترجم عن ظمأ أرواحهم، وهيام قلوبهم، وقلق نفوسهم، وكان الظن بمن أغناهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا إلى الجمهور غذاءه الروحي والعقلي في صورة أخاذة تلقي شيئاً من النور في طريق الأرواح الحائرة، أو تلقي قبساً من الثورة في أنفوس من تغشاهم الخمود.

ولعل أفظع رزء مُني به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال، ومصدر ذلك - فيما أظن - أنه يندر في الشرق أن يكون شيء من الأمر بيد الشباب: فنحن نعيش في قيود وأغلال طرق حديدها جماعة من الحمقى البلاداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوي العقل واضح الفكر مضيء الإدراك.

لنترك هذه الخواطر التي تقض بعض المضاجع، ولنأخذ في الكلام عن غزل شوقي:

لاحظت أن (شوقي) حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه بإغفال شيء من شعره القديم، فتجاور في ديوانه التليد والطريف، والغث والسمين، وأنا لا أكتم القراء أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعاً فمن العسير على الشاعر أو

الكاتب أن يتناسى شيئا من منظومه أو منشوره، وكل رجل منا حين يعود إلى آثاره يقع صريع الفتنة والإعجاب، وأكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع أنفسهم: فقد يتفق أن يسوء رأي المرء في إحدى قصائده أو رسائله ولكنه مع ذلك يضعف فيرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود.

وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه أن يبها للنسيان، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كأبنائه يتساوى حظهم عنده من البر والإشفاق.

وقد أحرق البحري جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر لابنه من بعده، وعندي أن تلك جرأة عظيمة أن يتلف الرجل بعض آثاره مراعاة لمصالح الأهل والأقرباء وفي ظني أن ذلك ما كان يقع لو قيل للبحري: أحرق هذه الأهاجي لأنها ضعيفة لا تستحق البقاء.

وإنما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بها عن شوقي فهو في رأينا أبعد نظرا من أن يخفى عليه ضعف الأبيات الآتية:

لا والقوام الذي والأعين السلاقي	ما خنت رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهمم ولا خطرت	بالبال سلواك في ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب	وثغرك المتمني كل حاجاتي

فليس في هذه الأبيات من سمات الشعر غير الوزن والقافية ولكنه أثبتها في الديوان لأنه قالها، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل على أي حال أمير الكلام!

وإلا فما هو القوام الذي، وما هي الأعين اللاتي؟ اللهم إلا أن يريد أن يأتي بشاهد جديد لحذف صلة الموصول!

ثم ما معنى قوله:

وخاتم الملك للحاجات مطلب ونغرك المتمني كل حاجاتي

وكيف غابت عليه تفاهة كلمة (حاجات) في مقام التشبيب.

ومن الغزل البارع جدا قول شوقي:

يا ناعما رقدت جفونه	مضناك لا تهدا شجونه
حمل الهوى لك كله	إن لم تعنه فمن يعينه
عدم منعا أو لا تعد	أودعت شرك من يصونه
بينني وبينك في الهوى	سبب سيجمعنا متينه
رشأ يعاب الساحرو	ن وسحرهم إلا جفونسه
الروح ملك يمينه	يقديه ما ملكت يمينه
ما البان إلا قده	لو تيمت قلبا غصونه

هذه قطعة جميلة، لم يضعف منها إلا قوله:

رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونسه

لأنه لا يكفي أن يقال: (السحر معيب، ولكن سحر هذه الجفون لا عيب فيه) والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من أن ينزل إلى توافه المشكلات. فهل يدري القارئ ماذا أضاف شوقي إلى هذه القطعة الجيدة؟ لننظر كيف يقول:

ويـزـين كـل يـتـيمـة فـمـه و تـحـسـبـها تـزـينـه

فما معنى هذا؟ معناه أن ثنايا المحبوب تزين اللآلئ، على حين يظن أن اللآلئ تزينها.. وما نظن شوقي يقدر أن هذا معنى جميل. والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله الحسين بن مطير:

منعمة الأطراف زانت عقودها بأجمل مما زيتها عقودها

فإن هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول: لأن النحور قد تكون أجمل وأروع من نفائس العقود. أما أن تكون الثنايا أجمل من اللآلئ التي تزدها بها فذلك خيال مقلوب.

ثم ما معنى قوله بعد ذلك:

ما العـمـر إلا لـيـلـة كـان الصـباح لها جـيـنـه

وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقي إسقاطها من الديوان ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء وسترى في الأبحاث الآتية مبلغ ما وصل إليه في فن النسيب.

٢

بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب: فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام، وهي بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغني ويرهف إحساسه للتلحين والتطريب، ومن مساوئها أنها تفرض على الشاعر ما لا قبل له باحتماله من التغني بعواطف قد تكون خمدت في صدره منذ أزمان. على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الإسفاف وحسب القارئ أن أذكر أن من الشعراء الماضين من كان يفتح قصائد الرثاء بالنسيب وذلك أغرب ألوان الشذوذ، وقد أحصيت من هذا النوع عشرين شاهدا هي في مذكراتي بمصر، فليعذرني القارئ إن اكتفيت بالإشارة إليها في هذا الحديث.

وقد سلك شوقي هذا المسلك، فباب النسيب في ديوانه أخذ أغلبه من طلائع مدائح القديمة، فهو في جملة نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء. وهو في هذا يشارك جمهور شعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التي لا ينبغي أن يشرك الشاعر بها أحدا من الناس.

الجمال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال ويبتذلوه في غير إشفاق

فإنه لا يغتفر لشوقي - وقد درس ميسيه ولا مرتين وفرلين - أن لا يتقي الله في لغته ويرجمها من ذلك الجذب الموحش الذي ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون في جبن وغفلة وجمود عن التسبيح بحمد الجمال.

ومع هذا فلشوقي مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده وسنعود إليها في الرسالة الآتية، ولكنها لقلتها لا تسمو به إلى منزلة معاصريه في الأمم الأوربية، ولا تلحقه بمن أجاد التشبيب من أسلافه كعمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وأبي نواس وابن زيدون.

وقد عرض شوقي لتشطير بعض أبيات النسيب، والتشطير والتخميس من الفنون المستحدثة في الشعر العربي، وهو عمل فني لا أثر فيه للعاطفة وإنما يرجع إلى الذكاء. فلننظر كيف صنع شوقي مثلاً في قول أبي نواس:

يا ويح أهلي يروني بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائمي

والقارئ في غنى عن يرشده إلى روعة هذا البيت الجميل وقد حوله شوقي إلى الصورة الآتية:

يا ويح أهلي أبلى بين أعينهم ويدرج الموت في جسمي
وينظرون بجنب لا هدوء له على الفراش ولا يدرون ما دائمي

فإن هذا التشطير لم يستقم لشوقي إلا بحذف كلمة (يروني) ووضع كلمة (أبلى) مكانها. ثم عاد فأتى بكلمة (وينظرون) في البيت الثاني ليستقيم له الشطر الأخير وقد عاد المعنى مغلقاً بعض الشيء حين تدخل شوقي لإتمامه. وكان قبل ذلك غاية في الرقة والوضوح.

ولشوقي بيت سائر وهو قوله:

نظرة فابتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء

وهو بيت يعجب به الناس، وقد أشرت مرة إلى أنه عرض فيه حوادث الحب على الطريقة السينمائية، وهو فوق ذلك لا يمثل الحرائر من الحسان، وإنما يمثل الساقطات اللاتي تنبو عنهن العيون في الحانات وما أظن شوقي ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة اللهم إلا إن زعم أنه كان (أيروس) العصر والأوان!

وقد فتن شوقي بالسلاسة التي كانت في نصيب ذلك البيت فأراد أن يضيف إليه بيتا ثانيا لتمام صور العشق فقال:

ففراق يكون فيه دواء
أو فراق يكون منه السداء

فأين هذا من ذاك؟ ذاك بيت ألفت به السليقة فجاء غاية في الاستواء، أما البيت الثاني فهو من آثار التكلف، لأن الشاعر توهم أن الصورة تتم به، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين.

فإن كان شوقي في ريب من صدق هذه الملاحظة فليحدثنا كيف صح له أن يقول بعد ذلك:

يوم كنا ولا تسلسل كيف كنا
نتهادى في الهوى ما نشاء

فإن ذلك وقع بالطبع بعد السلام والكلام وقبل الفراق!

وجاء في الديوان ما نصه:

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء في مجلس فذكر أحدهم بيتا للبهاء

زهير وهو:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فوالله ما أدري الهوى كيف

فقال:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى لعل الذي لا يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته فوالله ما أدري الهوى كيف

وكان على شوقي أن يلاحظ أن بيت البهاء زهير هذا ليس من الجودة بحيث يستحق هذه العناية، فإن من السذاجة أن يتوجه الناس إلى المحب قائلين: نسمع أنك تحب، فهل لك أن تقول لنا ما طعم الحب وما لونه؟ وأغرب من هذا وأدخل في السذاجة أن يعلل شوقي وجاهة السؤال بقوله:

لعل الذي لا يعرف الحب يعرف

فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين أم الأمر لا يخرج عن عبث الألفاظ!

وهناك قصيدة صنعها شوقي ليدل بها على ذكائه وانقياد النظم إليه، فقد

قال البارودي:

أتغلبني ذات الدلال على صبري؟

ثم سكت. فرأى شوقي أن يكمل البيت هكذا:

إذن أنا أولى بالقناع وبالخدر

ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية.

وقبل نقد هذه القصيدة نسأل شوقي: هل كل مغلوب على صبره في الحب

خليق بالخدر والقناع؟

لا أظن! وإلا فهناك قصائد صرح فيها شوقي بأنه يائس مغلوب!

وإلى القارئ القطعة الآتية:

ترأت دموعي فيه سابقة الفجر
وهل بالسهي في حلة السقم من
أخوض غمار الظن والنظر الشزر
يبالغن في زجري ويسرفن في
نرى حالة بين الصبابة والسحر
وذرن قضاء الله في خلقه يجري
رددت قلوب العاذلات إلى العذر
يقلن أمانا للعداري من الشعر
وجدت مقال الهجر يزري بأن
ومن هو يعدل في الوصال وفي

وليل كأن الحشر مطلع فجره
سريت به طيفا إلى من أحبها
طرقت حماها بعد ما هب أهلها
فما راعني إلا نساء لقيتني
يقلن لمن أهوى وأنسن ريبة
إليكن جارات الحمى عن ملامتي
وأخرجني دمعي فلما زجرته
فساءلتها ما اسمي فسمت
فقلت أخاف الله فيكن إنني
أخذت بحظ من هواها وبينها

هذه أبيات في غاية الانسجام، ولأجل هذا أثبتتها شوقي في الديوان، ولكن

ما معناها؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة، قاهرية بالطبع، لأن هذا من شعره القديم، وللقاهريات تقاليد في الصيانة والعفاف. ومع هذا طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين، وأحاط به النساء يزجرنه وينهرنه، ثم توجه أولئك النساء إلى محبوبته يسألنها ما شأن هذا الزائر؟ وهنا أجهش الشاعر في البكاء فخدمت حمية النساء وسألن الفتاة عن اسمه فقالت شوقي! ولم تكذ تلفظ هذا الاسم الكريم حتى تساقط النساء متخاذلات واهنات يطلبن من الشعر الأمان! وفي هذا الموقف كان الشاعر كريها، فقد طمأنهن قائلاً: إنه يخاف فيهن الله!!

إن هذه الصورة المنكرة لا تقع في حي وضيق إلا موسومة بسقم الذوق، فكيف صح وقوعها في مدينة القاهرة قبل ثلاثين عاماً!!

كل هذا لم يكن، ولكن شوقي أراد أن يتكلم، فليكن ما أراد لأنه يقول للشعر: كن فيكون.

وعلى القارئ أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة كانت شئائهن من هذا الطراز: ولو في خيال أمير الشعراء!!

٣

نجوى القلب

شوقي شاعر محسود، فقد ملأ جميع الأسعاع وأشجى كثيرا من القلوب، وقد أتيح له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين عاما، وهي زعامة حقة لا يمتري فيها إلا المكابرون. وكم شقى خصومه في هدمه وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المغرض إلا كما يصنع المطر من متين الحصون، لا تسأل عن السر في عظمة شوقي لأن الشعر في أكثر الأحيان من النفحات الإلهية التي لا تنال بالجد وعرق الجبين، فليس هو بأعلم معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود وقد أفصح عن ذلك أبداع إفصاح حين قال:

رب سامي البيان نبه شأنى	أنسا أسمو إلى نباهة شأنه
كان بالسبق والميادين أولى	لو جرى الحظ في سواء عنانه
إنما أظهروا يد الله عندي	وأذاعوا الجميل من إحسانه
ما الرحيق الذي تذوقون من كر	مي وإن عشت طائفا بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع	أين فضل الحمام في تحنانه
وتر في اللهاة ما للمغنى	من يد في صفائه وليانه

وكذلك يجيد شوقي حين يسلم خياله إلى فطرته الجيدة، ويسف حين يتكلف ويتصنع، لأنه لا يتقن الصنعة إلا الشعراء المحرومون من هبات الروح.

وقد راجعت ما قال شوقي في النسيب فكان أكثر ما شاقني عنده نجواه
 لقلبه وقد ودع أحلام الشباب، وكلمة الشباب لها في شعر شوقي وفي حياته
 معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم إلا من عاشوا كما عاش، أو رزقوا من رقة
 الحس ما يتوهمون به كيف كانت حياة مثله بين فتن المال والجمال والشباب.

وشوقي رجل ألقى في غيابات الماضي أطيب الأحلام والأوهام فهو اليوم
 يعيش تحت أثقال السنين، ولكن كاهله لا يزال قويا ولا يزال يقول: هات ما
 عندك يا زمان! ولا يزال في ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف
 والمشاعر والأحاسيس.

غير أن (شوقي) أذكى من ذلك، فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال
 بصباه كما كان يفعل في أيامه الخوالي، وإنما ينقاد الجمال إليه لأن شهرته طبقت
 آفاق الأقطار العربية، وطبعت اسمه في صدور الناطقين بالضاد. كل هذا جعل
 شوقي من أشعر الناس حين يتحدث عن هزيمته في الحب، وكان لا يعرف
 الهزائم في ذلك الميدان فيا رحمة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر، ثم كتب
 عليه أن يشهد في آخر أيامه وقائع الإخفاق!

وإلى القارئ نجوى شوقي لقلبه وقد تقطعت حباله في أودية الجمال:

ولممت من طرق الملاح شباكي	شيعت أحلامي بقلب باك
أمشي مكانها على الأشواك	ورجعت أدراج الشباب وورده
لما تلفت جهشة التباكي	وبجانبي واه كأن خفوقه
فإذا أهيب به فليس بشاك	شاكي السلاح إذا خلا بضلوعه
من بعد طول تناول وفكاك	قد راعه أي طويست جبائلي

ويح ابن جنبي كل غاية لذة
لم تبق منا يا فؤاد بقية
كنا إذا صفقت نستبق الهوى
واليوم تبعث في حين تمزني
بعد الشباب عزيزة الإدراك
لفتوة أو فضلة لعراك
ونشد شد العصبة الفتاك
ما يبعث الناقوس في النساك

وإلى القارئ قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية:

صحا القلب إلا من خمار أمانى
حنانك قلبي هل أعيد لك
تحن إلى ذاك الزمان وطيبه
إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة
أتذكر إذ نعطي الصباة حقها
وأنت خفوق والحبيب مباعده
وأيام لا أكو رهانا مع الهوى
لقد كنت أشكو من خفوقك دأبا
سقاك التصابي بعد ما علك الصبا
وما زلت في ريع الشباب وإنما
ولا أكذب البارى بنى الله هيكلي
أديس إذا اقتاد الجمال أزمي

يجاذبني في الغيد رث عناني
وهل للفتى بالمستحيل يدان
وهل أنت إلا من دم وحنان
ولم تذكر إلا فقلت جناني
ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفوق والحبيب مدان
وأنت فؤادي عند كل رهان
فولى فيما لهفى على الخفقان
فكيف ترى الكأسين تختلفان
يشيب الفتى في مصر قبل أوان
صنيعة إحسان ورق حسان
وأعنو إذا اقتاد الجمال عناني

والفرق بين القطعتين واضح، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن الشاعر ألقى بها وهو واجد محزون، أما الثانية فوسط بين الجيد والرديء لأن الشاعر قالها

وهو شاب يتكلف سامة الشيوخ ليثبت أن الفتى يشيب في مصر قبل أوان
المشيب والضعف ظاهر في قوله:

وتشرب من صرف الهوى بدنان أتذكر إذ نعطي الصبابة حقها

وقوله:

وأنت فؤادي عند كل رهان وأيام لا ألورهاناً مع الهوى

والفتور ملموس في قوله:

وأنت خفوق والحبيب مدان وأنت خفوق والحبيب مباعد

على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين:

وما في الأرض أشنقى من محب ولو وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حال مخافة فرقة أو لاشتياق
فيكي أن نأوا شوقاً إليهم ويكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينيه عند التنائي وتسخن عينه عند التلاقي

وفي القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض في عرض نفسية الشاعر، فهو
يحدثنا أولاً أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا من المستحيل، ثم يعود
فيذكر أنه لا يزال في ريع الشباب وأن الله بنى هيكله صنعة إحسان ورق
حسان، فهو في أول القطعة يندب شبابه وهو في آخرها يتغزل في نفسه فيذكر
أن قوامه كالغصن الرطيب. وفي هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لا يعني
ما يقول.

ولننظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة:

أرقت وعادتني لذكرى أحبتي
ومن يحمل الأشواق يتعب
شجون قيام بالضلوع قعود
عليه قديم في الهوى وجديد
لك الله يا قلبي أنت حديد
لقت الذي لم يلق قلب من الهوى

وهذا شعر لا بأس به ولكن ما معنى قوله:

لك الله يا قلبي أنت حديد؟

إننا نظن أن هذا التعبير لا يخلو من ابتذال.

ومن الإنصاف أن نذكر أننا نستجيد من هذه القصيدة القطعة الآتية:

وروض كما شاء المحبون ظله
تظللنا والطنير في جنباته
لهم ولأسرار الغرام مديد
غصون قيام للنسيم سجد
يعارضها مضمي الصبا فتعيد
وماس عليها الحلى وهي تميد
بأهل ومفقود الأليف وحيد
وجذلان يشدو في الربى ويشيد
وعريان كاس تزدهيه مهود
ويقطر منها العيش وهو رغيد
فقلت لها حتى النهار شهيد
فما هي مما نبتغي ونصيد
ويوم تسل المرهفات أسود
ويقتلنا لحظ ويأسر جيد
وقامت لديها الطير شتى: فأنس
وباك ولا دمع وشاك ولا جوى
وذو كبرة لم يعط بالدهر خبرة
غشينا والأيام تندى شيبية
رأت شفقا يعنى النهار مضرجا
فقلت وما بالطير؟ قلت سكينه
أحل لنا صيدان: يوم الهوى مها
يحطم رمح دوننا ومهند

ونحكم حتى يقبل الدهر حكمنا . ونحن لسلطان الغرام عبيد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وإن كنا ننكر عليه البيتين الأخيرين، لأن شوقي لم يكن يوماً من رجال السيف، حتى يصطاد المها في يوم الهوى ويصطاد الأسود في يوم الجلال، وهو قد سرق هذا المعنى من عبد الله بن طاهر إذ يقول:

نحن قوم تذيينا الأعين النجم سل على أننا نذيب الحديد
وترانا عند الكريمة أحرا را وعند الغواني عبيدا

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل لأنه كان من كبار القواد ومن أقدر الناس على مقارعة الهيجاء، في حين أن شوقي حدثنا في مقدمته القديمة للشوقيات أنه كان يجتاز ميدان عابدين على ظهر أتان!

الجزل والرقيق:

شوقي يؤثر الرقيق على الجزل في الغزل والنسيب، ولا عيب فيه إلا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل إلى النعومة واللين، وإلى القارئ هذه الأبيات:

يا حسنه بين الحسان في شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيسو ن وما هن به يدان
ملك الجوانح والفؤا دففي يديه الخاقان
ومنأي منه نظرة فعسى يشير الحاجبان
فعسى يزكى حسنه من لاله في الحسن ثان
فسدعه يعدل أو يجو رفإنه ملك العنان

حق الدلال لمن له في كل جارحة مكان

والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه (حسن في شكله) من التعابير العامة،
ولكن لا بأس فلعل ذلك الظبي كان يلعب في الحارة حينذاك.

وزكاة الحسن ما موضعها هنا؟ إن الشاعر يجاري بعض المتقدمين في هذا
المعنى، وكان ينبغي أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء.

ولشوقي قطعة رقيقة قالها في بعض الناس ووهبها للغناء، وهي:

منك يا هاجر دائني	وبكفيك دوائني
يا منى روجي ودنيا	ي وسؤلي ورجائي
أنت إن شئت نعيمي	وإذا شئت شقائي
ليس من عمري يوم	لا ترى فيه لقائي
وحياتي في التبداني	ومماتي في التنائي
نم على نسيان شهدي	فيك واضحك من بكائي
كل ما ترضاه يا مولا	ي يرضاه ولائني
وكما تعلم حبي	وكما تدري وفائي
فيك يا راحة روجي	طال بالواشي عنائي
وتواريت بدمعي	من عيون الرقباء
أنا أهواك ولا أرى	ضى الهوى من شركائي
غرت حتى لترى أرى	ضي غيري من سوائي
ليتني كنت رداء	لك أو كنت ردائي
ليتني ماؤك في الغل	ة أو ليتك مائي

وهذا شعر مقبول، ولكن هل يستطيع شوقي أن يدلنا على بيت واحد فيه شيء من الإبداع؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء هذه المعاني التي ردها مئات الشعراء؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهي التي يقول فيها:

وقالوا في البديل رضا وروح لقد رمت البديل فرمت صعبا
وراجعت الرشاد عساي أسلو فما بالي مع السلوان أصبى
إذا ما الكأس لم تذهب همومي فقد تبت يد الساقى وتبا
على أنى أعف من احتساها وأكرم من عذارى الدير شربا

وهي قصيدة أكثرها مستجاد، وإنما نقلنا هذه الأبيات لنسأل شوقي عن معنى قوله:

إذا ما الكأس لم تذهب همومي فقد تبت يد الساقى وتبا

لأننا لا نفهم موجب هذه الدعوة البشعة في الشطر الأخير وما ذنب الساقى إذا تحجرت نفس الشارب في حضرة الصهباء؟ وقد نفهم أن يكون شوقي أعف من احتسى الراح، إن كانت تبقي على عفاف، ولكننا لا ندري كيف رأى أن يحدثنا أنه أكرم من عذارى الدير شربا!! لقد كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى الشاربين فتكا، لا أنه أكرم شربا من العذارى المتبتلات، فإن الراح لا تثير معاني الحنان إلا في النفوس الضعاف!

ثم ما قيمة قوله في كلمة أخرى:

حبتك ذات الخال، والحب حالة إذا عرضت للمرء لم يدر ما هيا

وأنتك دنيا القلب مهما غدرته
 وبين الهوى والعذل للقلب
 وبين المنى والياس للصبر هزة
 أتى لك مملوءا من الوجد وافيها
 كحالك بين السيف والنار ثاويها
 كخصرك بين النهد والردف واهيها

ويا ليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان.

وما قيمة قوله أيضا يستعطف محبوبته:

فحسب خدي من عيني ما شربا
 وأين وجه الحسن في قوله:
 يا من هجرت إلى الأوطان رؤيتها
 أتذكرين حنيني في الزمان لها
 وغبطي الطير ألقاه أصبح به
 فمثل ما قد جرى لم تلق عينا
 فرحت أشوق مشتاق لأوطان
 وسكبي الدمع من تذكراها قاني
 ليت الكريم الذي أعطاك أعطاني

وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقارئ بما في باب النسيب من مواطن القوة والضعف، أردنا بها توجيه الأنظار إلى الجزء الثاني من الشوقيات، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبل النيل الذي يقول:

وقلت له صبرا فكل أخي هوى
 على يد من يهوى غدا سيتوب

أحمد شوقي والموازنة بينه وبين بعض الشعراء

عرفنا أن للشاعر أحمد شوقي حظ عظيم من عناية زكي مبارك، وأن الصلة التي توطدت بين الاثنين في يوم من الأيام وفترت بعد ذلك، لم تمنع زكي مبارك من أن يظل مشغولاً بأحمد شوقي، فنقد الشوقيات وكتب عن الغزل في شعر شوقي.

ويقول زكي مبارك: (شوقي معروف في مصر والشرق، وهو خير بأسرار اللغة العربية، وبصير بثئون الحياة، وله كلف بمعارضة القدماء) ولهذا فقد رأينا زكي مبارك يوازن بين الشاعر شوقي وبين الشعراء الحصري والبحثري والبوصيري، والبارودي، وابن زيدون.

ونحن نرى أن شوقي عارض الحصري في قصيدته الدالية:

يا ليل الصب متى غده؟

حين نظم شوقي داليته:

مضناك جفاه مرقده

وأن شوقي حين نظم قصيدته السينية في وصف قصر الحمراء كان يعارض بها سينية البحثري في وصف إيوان كسرى.

يقول البحثري:

صننت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن ندى كل جيس

ويقول شوقي:

اختلاف النهار والليل ينسي اذكروالي الصبا وأيام أنسي

وللبوصيري قصيدته المشهورة (البردة) والتي يستهلها بقوله:

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ويعارضها شوقي بقصيدته المشهورة أيضا (نهج البردة) فيقول:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وللبارودي قصيدة اسمها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) يقول

البارودي في مطلعها:

يارائد البرق يمم داره العلم واحد الغمام إلى حي بندي سلم

والقصيدة طويلة وفيها أيضا وصف البارودي للغار الذي أوى إليه النبي

صلى الله عليه وسلم مع الصديق، فيقول البارودي بين ما يقول:

وجاءه الوحي إيذانا بهجرته فيمم الغار بالصديق في الغسم

والتي عارضها البوصيري:

ظنوا الحام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم

ويعارضها شوقي في ميمته قائلا:

سل عصابة الشرك حول الغار لولا مطاردة المختار لم تحم

ثم هناك نونية ابن زيدون المشهورة:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهناك معارضة شوقي لابن زيدون في قصيدته النونية المشهورة أيضا:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

والآن مع زكي مبارك ونقده الممتع في الموازنة بين الشاعر أحمد شوقي

والشعراء الذين عارضهم الشاعر أحمد شوقي.

الحصري وشوقي

ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة، كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد وابن دراج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس... إلخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعا من السباق في عالم البيان.

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصري^(١) (يا ليل الصب متى غده) ودالية شوقي (مضناك جفاه مرقده) فإن لهاتين القصيدتين أثرا في أندية الأدب ومجالس الغناء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيها من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين: أي الشعاعين أبرع لفظا وأشرف معنى وأسمى خيالا.

والحصري^(٢) -بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة وبعدها راء مهملة- هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب، وقد ذكر ابن

(١) الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك الطبعة الثانية صفحة ١٠٩.

(٢) ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى الحصر وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طراً على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق معمور الطريق فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه -فيما نقل- لم يطمئن هناك فاحتمل على مضض بين زمانه وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله سنة ٤٨٨.

وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر^(١) وهو القائل:

أقول له وقد حيا بكأس لهامن مسك رفته ختام
أمن خديك تعصر قال كلا متى عصرت من الورد المدام

ويقول ابن بسام في وصفه (على أنه كان فيما بلغني من ضيق العطن، ومشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء تلفت الظمآن إلى الماء).

وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

(١) راجع وفيات الأعيان.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فإن التأليف في علم القراءات يدل على ذلك، ويمكن الحكم أيضاً بأنه كان بصيراً بشئون الحياة فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق وله كلف بمعارضة القدماء وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية وبصير بشئون الحياة وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب واختتمها بالمديح ولكني سأقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين، إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ في الخلود:

قصيدة الحصري

أقيام الساعة موعسده	يا ليل الصب متى غده
أسف للبين يردده	رقد السمار وأرقه
مما يرعاه ويرصده	فبكاه النجم ورق لسه
خوف الواشين يشرده	كلف بغزال ذي هيف
في النوم فعز تصيده	نصبت عيناي له شركا
للسرب سباني أغيده	وكفى عجباً أني قنص
أهواه ولا أتعبده ^(١)	صنم للفتنة متصب
سكران اللحظ معرّبه	صاح والخمر جنى فمه

(١) الصنم هو التمثال ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق.

وكان نعا سا يغمره
 والويل لمن يتقلده
 عيناه ولم تقتل يده
 وعلى خديه تورده
 فعلام جفونك تجرحه
 وأظنك لا تتعمده
 فعمل خيالك يسعده
 صلب يدنيك وتبعده
 فليبك عليه عوده
 هل من نظر يتزوده
 بالدمع يفيض مورده
 وصروف السدهر تبعده
 لولا الأيام تنكده
 لفؤادي كيف تجلسه

ينضو من مقلته سيفه
 فبريق دم العشاق به
 كلا لا ذنب لمن قتلت
 يا من جحدت عيناه دمي
 خذاك قد اعترفا بدمي
 إني لأعيذك من قتلي
 بالله هب المشتاق كرى
 ما ضرك لو داويت ضنى
 لم يبق هواك له رمقا
 وغدا يفضي أو بعد غد
 يا أهل الشوق لنا شرق
 بهوى المشتاق لقاءكمو
 ما أحلى الوصل وأعذبه
 بالين وبالهجران فيا

قصيدة شوقي

ويكاه ورحم عوده
 مقروح الجفن مسهده
 يقيه عليك وتنفده
 ويذيب الصخر تنهده
 ويقسيم الليل ويقعه

مضناك جفاه مرقده
 حيران القلب معذبه
 أودى حرقا إلا رمقا
 يستهوي السورق تأومه
 ويناجي السنجم ويتبعه

شجنا في الدوح تردده
 وتأدب لا يتصيد
 ولعل خيالك مسعده
 والسورة أنك مفردة
 حوراء الخلد وأمرده
 يدها لو تبعث تشهده
 كذلك خذك يجحده
 فأشرت لخدك أشهده
 فأبى واستكبر أصدده
 فنبينا وتمنع أملده
 ما بال الخصر يعقده
 لا يقدر واش يفسده
 باب السلوان وأوصده
 فأقول وأوشك أعبدده
 قد ضيعها سلمت يده
 وحنايا الأضلع معبده
 وأحق بعذري حسده
 قسم الياقوت منضده
 مقتول العشق ومشهده
 لو كان يقبل أسوده
 نسبا والرمح يفنده

ويعلم كل مطوقة
 كم مد لطيفك من شرك
 فعساك بغمض مسعفه
 الحسن حلفت بيوسفه
 قد ود جمالك أو قبسا
 وتمنت كل مقطعة
 جحدت عيناك زكي دمي
 قد عز شهودي إذ رمتا
 وهممت بجيحدك أشركه
 وهزرت قوامك أعطفه
 سبب لرضاك أمهده
 بيني في الحب وبينك ما
 ما بال العاذل يفتح لي
 ويقول تكاد تجن به
 مولاي وروحي في يده
 ناقوس القلب يدق له
 حسادي فيه أعذره
 قسما بثنايا لؤلؤها
 ورضاب يوعد كوثره
 وبخال كاد يحج له
 وقوام يروى الغصن له

وبخصر أوهن من جلدي وعوادي الهجر تبده
ما خنت هواك ولا خطرت سلوى بالقلب تبرده

الموازنة

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض، وإنا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل وطيف الخيال وخمر الرضاب، وسيف المقلّة، وجناية العين، وحمرة الخد، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب، ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضنى، وطيف الخيال، وجمال المحبوب وجناية العين، وحسن القد والجيد، ودقة الخصر، والصبر على الوشاة وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة من السلوان، فقصيدة شوقي إذن أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإنا لنجد الحصري يقول:

يساليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده
فيكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

ونجد شوقي يقول:

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده
أودى حرقاً إلا رقسا يقيسه عليك وتنفسه

يستهوِي الورق تأوهِه ويذِيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه ويقِيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة شجنا في السدوح تردده

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى
وأروع من مطلع الحصري وخطاب الحبيب في قول شوقي:

مِضْناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

أرق من خطاب الليل في قول الحصري:

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

وقول الشاعر شوقي في حيرة المحب وعذابه وفنائه:

حيران القلب معذبه مقبروح الجفن مسهده
أودى حرقا إلامقا يقيه عليك وتنفده
يستهوِي الورق تأوهِه ويذِيب الصخر تنهده

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري:

رقد السهار وأرقه أسف للبين يردده

وقول شوقي:

ويناجي النجم ويتبعه ويقِيم الليل ويقعده

أقرب في صدره إلى الواقع من قول الحصري:

فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

وقول الحصري في تصيد الطيف:

نصبت عيناى له شركا
وكفى عجباً أنى قنص
فى النوم فعز تصيده
للسرب سباني أغيده
أبرع من قول شوقي:

كم مد لطيفك من شرك
فعساك بغمض مسعفه
وتأدب لا يتصيد
ولعل خيالك يسعده

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة - وهي تمنع الطيف - فليس في طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مد له الأشرار..

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله:

كم مد لطيفك من شرك
وتأدب لا يتصيد
لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيد لحمدنا له هيبة الحسن وإن الحسن لمهيب الجناب^(١).

ويروفتني قول شوقي:

مولاي وروحي في يده
نفاقوس القلب يدق له
قد ضيعها سلمت يده
وحنايا الأضلع معبده

(١) هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر:

حى نفسه الحسن أضعاف ما
حى نفسه الجمر لما التهب

حَسَادِي فِيهِ أَعْذَرُهُمْ وَأَحَقُّ بَعْدِي حَسَدَهُ

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه في ظلمه وعدوانه ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون صلاة للحسن، إن قضى الله أن نصلي له، كما يصلي فريق للشمس عند الشروق، والهوى - كما قيل - إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول:

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسَا حُورَاءَ الْخَلْسِدِ وَأَمْرَدَهُ

فإن الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود بالتفرد والجلال.

وقول الحصري:

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمَهْ سَكْرَانُ اللَّحِظِ مَعْرَبْدَهُ

أروع وأبدع من قول شوقي:

وَرَضَابُ يَوْعَدُ كَوَثْرَهُ مَقْتُولُ الْعَشِيقِ وَمَشْهَدَهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذ نادر المثال، وفيه وحده صورة شعرية رائعة. وما رددته إلا فتنت به فتنة جديدة وظهر لي منه معنى جديد كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه. ولا حد لقدرته على تصريف القلوب.

ولك أن تتأمل كلمة (جنى) في قوله:

صاح والخمر جنى فمه سكران اللحظ معر به
وما هذه العربة يا صاح؟ إنها الأشرار التي يقيدك بها اللحظ، وأنت تنهل
من ورده العذب الجميل.

وقول شوقي:

جحدت عيناك زكي دمي أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودي إذ رمتا فأشرت لخدك أشهده
أرق من قول الحصري:

يا من جحدت عيناه دمي وعلى خدي به توره
خدك قد اعترف بأدمي فعلام جفونك تجحده

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن وزاده تمكيناً في
النفس على ما فيه من الابتدال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول:

لم يبق هواك له رمقا فليك عليه عوده
وغدا يقضي أو بعد غد هل من نظر يتزوده

ولا نجد هذه النعمة المحزنة في قصيدة شوقي وإنما لتذكرنا بهذا البيت
الحزين:

وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجسي منك وتدني أجلي

مظان الضعف

وإني لأستقل الصنم المنتصب في قول الحصري:

صنم للفتنة متصب أهواه ولا أتعبده

لأن كلمة (الصنم) كلمة غير شعرية والعرب تستملح (الدمية) في وصف المرأة الجميلة والدمية هي الصورة المنشقة من الرخام والجمع دمي، قال بعض الأعراب:

وإني لأهدي بالأوانس كالدمى وإني بأطراف القنا للعسوب
وإني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب

وكذلك أستضعف قول الحصري:

ما أحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلده

وأضعف منه قول شوقي:

بينني في الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لي باب السلوان وأوصده

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين. وهو لا يزيد شيئاً عن صوت العامي المشهور (كيد العواذل كايدي بس اسمع شوف).

وكذلك لا قيمة لقوله:

ويخصر أو هن من جلدي وعسوادي الهجر تبده

وهي مبالغة مردودة لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون
أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدور.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال:

وقوام يروى الغصن له نسبا والـرمح يفنـده

كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال:

إني لأعيذك من قتلي وأظنك لا تتعمده

فإن هذا خيال فقهاء لا خيال شعراء..

روعة الخيال

وإنه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال
الرائع وإننا لنستجيد قول الحصري:

ينضو من مقتله سيفا وكان نعا سـا يغـمه

فبريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده

كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

وأن البيت الأول لمن وثبات الخيال، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع
ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي:

ناقوس القلب يدق له وحنايا الأضلع معبده

وللقارئ أن يلومنا في استجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضا خيال فقهاء، لا خيال شعراء، ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ التي استملحها العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع عنيت بتفصيله في غير هذا الحديث، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس وكان خياله قريبا من الحسن من خيال الحصري، إذ توهم للحظ سيفا يكاد يغمده النعاس، وإني لمفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

وإنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا.. فإن الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة وكان من ذلك أن رضي بعفو الخاطر أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق. وكان من ذلك أن عني بترتيب المعاني واختيار الألفاظ وتنوع الأغراض. على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب فإنه لا معنى لقول الشاعر شوقي:

وبخال كاد يمج له لو كان يقبل أسوده

ولا رونق لقوله:

وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهده

الحكم

وللقارئ إن شاء الحكم أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن
الحسن ومظان الضعف ومواقع الخيال ليرى أي الشاعرين أولى بالسبق، وأيهما
أرجح في الميزان. وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن
والعيوب، فإننا لا نعنى بالأشخاص وإنما يعيننا أن ندرس الشعر وأن نقف على
ما فيه من القوة والضعف والحسن والقبح، وكذلك ندرس البيان ونحن نوازن
بين الشعراء.

البحثري وشوقي

قلنا: إن لشوقي كلفا بمعارضة المتقدمين من الشعراء ووازنا بين داليتيه ودالية الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحتري فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة، ليقف القارئ على ما فيها من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولاً أن شوقي يتأثر بالبحتري منذ زمن بعيد ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب (أم المحسنين):

النيل فجر مشرعين وعيلها	وتفجرت يمناك خمسة أبحر
أحييت في فضل الملوك وعزهم	ماتت من أم الخليفة جعفر
إن الذي قدردها وأعادها	في بردتيك أعاد في البحتري

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء:

وعظ البحتري إيوان كسرى	وشفتني القصور من عبد شمس
------------------------	--------------------------

حياة البحتري:

ولد أبو عبادة الوليد بن عبید البحتري في سنة ٢٠٦ بمَنبج بين حلب والفرات. ومَنبج - بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم - بلد قديم

طيب الهواء، ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم: البحري وأبو فراس ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج: أهذا منزلك؟ قال: هو لك ولي بك يا أمير المؤمنين قال: كيف بناؤه؟؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

قال: وكيف ذلك وقدرك فوق أقدارهم؟؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأفقو أثره وأحذو حذوه. قال: فكيف طيب منبج؟ قال: عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدوية. قال: فكيف ليلها؟ قال: سحر كله.

وفي التشويق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر وقد خلى بها شعبة من فؤاده:

وليلة عين المبرج زار خياله	فهيج بي شوقا وجدد أحزاني
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحا	بألمح أماق وأنظر إنسان
لعلي أرى آيات منبج رؤية	تسكن من وجدي وتكشف
فقصر طرفي واستهل بعبرة	وفديت من لو كان يدري لفداني
ومثله شوقي إليه مقابلي	وناجاه عني بالضمير وناجاني

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر في رقة البحري وجمال شعره فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدوية، أثرا كبيرا في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب^(١) ولأن البحري كان كثير الحنين

(١) انظر تفصيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الجرجاني في الجزء الثاني من كتاب (الشر الفني).

إلى منبج، وكان كثيرا ما يشيد بها في شعره. ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي:

لا أنسين زمنالديك مهذبا وظلال عيش كان عندك سجسج
في نعمة أوطنتها وسكنت في أفيائها فكأنني في منبج

بداية حياته

شب البحري وترعرع في منبج. وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان قالوا: وكان منه ما كان في علوة التي شبب بها في كثير من أشعاره، وهي بنت زريقة الحلبية وزريقة أمها ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة لها شأن في عالم الجمال وأن البحري حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في عهد المرح وتقلبت فوق أعطاف الدلال.. ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلفوا لنا دمية لعلوة. وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد. وعلمته كيف تكون الشكوى وكيف يكون الأنين.. وأن الشعر لمدين لهذه الآلهة التي أوحى إلى البحري أن يقول بعد أن خلاها بالشام وسكن العراق:

أعيدي في نظرة مستثيب توخى الأجر أو كره الأثاما
ترى كبدا محرقة وعينا مؤرقة وقلبا مستهما
ألام على هواك وليس عدلا إذا أحببت مثلك أن الأما
لقد حرمت من وصلي حلالا وقد حللت من هجري حراما
تساءت دار علوة بعد قرب فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا فما يعتادنا إلا الماما

وربت ليلة قدبت أسقي
 قطعنا الليل لثما واعتناقا
 بعينيهما وكفيهما المداما
 وأفنيهاه ضمما والتزاما
 لئن أضححت محلتنا عرفا
 مشرقة وحلتها شاما
 فلم أحدث لها إلا ودادا
 ولم أزدد بها إلا غراما

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحري سلطان ومن الوقار أن لا
 نعرض لها في هذا الحديث وقد بسطنا عنها القول في كتاب (مدامع العشاق)
 ويكفي أن نذكر أنموذجا من شعره في وصف تلك النفس وأنه ليقول:

هل لي سبيل إلى الظهران من
 أمد كفي لأخذ الكأس من رشأ
 ونشوة بين ذاك الورد والآس
 وحاجتي كلها في حامل الكاس
 دنأ فقربها من حر أنفاسي
 دنأ قرب أنفاسه أشفي الغليل إذا

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير
 الشعراء في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بحمص وعرض عليه شعره. وكان
 أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره. فلما سمع شعر
 البحري أقبل عليه وترك سائر الناس فلما تفرقوا قال له: أنت أشعر من
 أنشدني، فكيف حالك؟ فشكا إليه خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان يشهد له
 بالحدق ويوصيهم بإكرامه.. قال البحري (فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة
 آلاف درهم. فكانت أول مال أصبته) وقال البحري: أنشدت أبا تمام شيئا من
 شعري فأنشدني بيت أوس بن حجر:

إذا مقرم منا ذرى حسد نابيه تخمط فينا ناب آخر مقرم^(١)

وقال: نعتت إلي نفسي.. فقلت: أعيدك بالله من هذا! فقال: إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطبيء مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم وهو من رهطه فقال: يا بني نعي نفسي إلى إحسانك في كلامك، لأننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله.

قال: فهات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر البحتري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر حتى قالوا: إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شعرا لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر فقال لي (أحسن). أنت أمير الشعراء بعدي) فكان قوله أحب إلي من جميع ما حويته.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري فقد نوه بها ابن رشيق وساقها صاحب زهر الآداب وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا على أسلوب البحتري في حياته الأدبية فقد ساس نفسه

(١) الفحل المقرم هو الذي أقرمه صاحبه: تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة والقرمة. وتخمط الفحل: هدر. ومن المجاز: تخمط الرجل: تغضب وثار، والمراد هنا من تخمط الناب ظهوره وارتفاعه.

بما أوصاه به أستاذه وفيها أيضا نوع من التربية نحب أن نسجله في هذا الحديث.

قال البحرى: كنت في حدائتي أروم الشعر وكنت أرجع فيه إلى طبعي ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت أبا تمام وانقطعت فيه إليه. واتكلت في تعريفه عليه. فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفرا من الغموم واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا. والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكتابة وقلق الأشواق ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أيد، فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه، وأبن معاملة وشرف مقامه، ونضد المعاني، واحذر المجهول منها وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين: فما استحسّن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله.

قال البحرى: فأعلمت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة^(١).

(١) السياسة هنا حسن التدبير.

ولهذه الوصية أغراض.. يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهباً للقريض ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس ويلطف الحس. ويستيقظ الوجدان ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية والرياض الحالية، والأماكن الخالية إلا أن أبا تمام -مع أنه مسبوق- وفق كل التوفيق حين قال: (واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه فإن الشهوة نعم المعين) وهذه الكلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق سواء أكانوا شعراء أم كتاباء، أم مصورين، أم مثالين، لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة. وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسب والمديح وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء فلم يتكلم عن الرثاء ولا الهجاء ولا الفخر ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال: (ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد) وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتدال.

ولا يحسبن القارئ أن في إقبال البحترى على ما أوصاه به أستاذه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحترى من نمط واحد.. كلا فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ ولا يقبل أن يمثل الشاعر لأننا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا

ما بين المنزعين من الفرق البعيد ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلا وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن في عناية البحري بوصية أستاذه بيانا لأسلوبه في رياضة نفسه وتهذيب شعره فلننظر بهذه المناسبة كيف يروض شوقي نفسه وكيف يهذب شعره وكيف يتناول ما يقصده إلى نظمه من شتى الأغراض فقد صحبنا شوقي وعاصرناه وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان. وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت فستراه قليل الحديث وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع لهذا الرجل الصموت. وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين ولكني وقد عرفت شوقي أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلي. وليلاه هي الشعر وهو بالشعر مجنون لا مغرم ولا مفتون فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب يحدثك شوقي حديثا عاديا لا روعة له ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه وحنايا نفسه وأعماق ضميره. دخلت عليه وهو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفاني فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد.. ثم بغتني بهذه الكلمة (الصوفاني بك معضلة من المعضلات هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزرعما؟؟) فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن

الجامعة المصرية وأن قلبه ونفسه وحسه ووجدانه في شغل بما يعده لثناء الصوفاني (تمثال الإخلاص) وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديد تلك الشخصية ثم انتظرت يوم التأيين فإذا هو يقول عن أثر الفقيده في المجالس النيابية:

ما كان قسا ولا زيادا ولا بسحر اليان جاء
لكن إذا قام قال صدقا وجانب الزور والرياء

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفا صادقا حين قال:

(ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي وحين يشاء وحيث يشاء ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ غمغمة النغم الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظره وقد برقا وتواترت فيها حركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمرارا خفيفا هنيهة بعد هنيهة فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعاداته في الحديث. ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظها ما تم منه حافظا لبقية المعنى الذي يضمه يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرا، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة - يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن يبرهم - لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى فأما المعنى فيجئيه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب، وفلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير

التي يحفظ منها غير يسير إلى مشاركات علمية وتنبهات فنية استقاها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول: ترى فيه من نسج البحري ومن صياغة أبي تمام ومن وثبات المتنبي ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي: ذلك شعر العبقرية والتفوق).

ملاحح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحري وشوقي في قرص الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالأدب العربية فقد ترك البحري كتابا سماه (معاني الشعر)^(١) وترك كتابا آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات وشوقي - وإن لم يصنف كتابا في الأدب - يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به فقد كان البحري يحتفي بإنشاد شعره ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين ليرى مبلغ إعجابهم به وإكبارهم له حتى نفر الناس منه وعبث أهل السفه به وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلما يتحدث عن شعره وقلما ينشده وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم، وحسن الأداء، وهذا المسلك -

(١) قد يظن أن هذا كتاب في النقد ولكننا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعاني.

مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم - غير مأمون العواقب وكثيرا ما أذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البليغ.

وفاء البحري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس ومثانة الخلق وكرم العنصر ولم يكن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي فلنكتف بهذا التلميح ولنذكر ما ضير للبحري مثلا في الوفاء.

كان المتوكل - كما ذكر صاحب زهر الآداب - عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر، ويقول له: أنت تمنى موتي وتنتظر وقتي ويأمر الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوغر صدره وأقل صبره فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين وكان المنتصر معهم فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي: ألا تسمعي ساعة حتى أشكون إليك ما يمر بي؟ قال: بلى، وجعل يباطله ويطاوله وغلق بغا الشرايي الأبواب كلها إلا باب الماء ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل عاتقه وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه فقتلا جميعا وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري (وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة

أشهر) وللظالم الويل، كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين.. وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحري. وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافيا في ردعه عن رثاء مولاه، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله: ما قيلت هاشمية أحسن منها وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب) وفيها يقول:

تغير حسن الجعفري وأنسه	وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه	فأضت سواء دوره ومقابره
ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه	وإذ ذعرت أطلاؤه وجأذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أستاره وستائره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى	وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
فأين عميد الناس في كل نوبة	تنوب وناهي الدهر فيهم وأمره
تخفى له مغتاله تحست غرة	وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة	يجود بها والموت حمر أظافره
حرام على الراح بعدك أو أرى	دما بدم يجري على الأرض مائره
وهل يرتجى أن يطلب الدم طالب	مدى الدهر والموتور بالدم واتره
فلا ملئ الباقي تراث الذي مضى	ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، إنه لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل بن خاقان وانظر كيف يفض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه:

تداركني الإحسان منك ونالني
على فاقة ذاك الندى والتطول

ودافعت عني حين لا الفتح لدفع الأذى عني ولا المتوكل

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية:

مضى جعفر والفتح بين موسد وبين قتيل في الدماء مخرج
أطلب أنصارا على الدهر بعد ما ثوى منها في الترب أوسى

وانظر كيف يقول وقد بان بعض من يهوى:

عسى آيس من رجعة الوصل ودهر تولى بالأحبة يقبل
أيا سكنات الفراق بنفسه وحال التعادي دونه والتزير
أتعجب لما لم يغفل جسمي الضنى ولم يخترم نفسي الحمام المعجل
فقبلك بان الفتح عني مودعا وفارقني شفعا له المتوكل
فما بلغ الدمع الذي كنت أرتجي ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
وما كل نيران الجوى تقتل الحشا وما كل أدواء الصبابة تقتل

تلك هي نفس البحترى الذي عذبتة علوة في بداية حياته وصهره الحزن
على المتوكل في أخريات أيامه وقد عرف القارئ عنه شيئا فيه بعض الغناء
وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والاتلاف. ومن الواجب أن
يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك والتفجع لنكبات الشعوب قبل
أن يرى كيف وصف البحترى إيوان كسرى وكيف وصف شوقي قصر
الحمراء.

بكاء الممالك عند البحري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك والتفجع للشعوب إذ كانوا في بداية الحياة، وكان الرجل منهم قلما يعنى بغير نفسه وأهله وذويه فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يستر لها عورة، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال؛ وإنما كتاب حكمة وموعظة فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق} ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب}.

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ومن إليهم من الجبابرة والطغاة، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشهادة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال. على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة

المدنية وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو والتحزن لما عفا
من ملاعب الشباب فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي:

نام الخلي وما أحس رقادي
من غير ما سقم ولكن شفني
ومن الحوادث لا أبالك أنني
لا أهتدي فيها لموضع تلعة
ولقد علمت سوى الذي نبأتني
إن المنية والحتوف كلاهما
لن يرضيا مني وفاء رهينة

والهم محتضر لدى وسادي
هم أراه قد أصاب فؤادي
ضربت على الأرض بالأسداد
بين العراق وبين أرض مراد
أن السبيل سبيل ذي الأعواد
يوفي المخارم يرقبان سواد
من دون نفسي طارفي وتلاذي

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين:

ماذا أو مل بعد آل محرق
أهل الخورنق والسدير وبارق
أرض تخيرها لطيب مقيلها
جرت الرياح على مكان ديارهم
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمو
فإذا النعيم وكل ما يلهى به
ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال:

تركوا منازلهم وبعد إياد
والقصر ذي الشرفات من سنداد
كعب بن مامة وابن أم دواد
فكانها كانوا على ميعاد
في ظل ملك ثابت الأوتاد
ماء الفرات يجيء من أطواد
يوما يصير إلى بلى ونفاد

ما نيل من بصري ومن أجلاذي

أما تريني قد بليت وغاضني

وأطعت عاذلتي ولان قيادي
 مذلا بهالي لينا أجيادي
 بسلافة مزجت بهاء غواد
 وافى بهالدراهم الأجداد
 قنأت أنامله من الفرصاد
 أدحى بين صريمة وجهاد
 بيض الوجوه رقيقة الأجداد

وعصيت أصحاب الصباية
 فلقد أروح على التجار مرجلا
 لقد هوت وللشباب لداذة
 من خمر ذي نطف أغن منطق
 يسعى بها ذو تومتين مشمر
 والبيض يرمين القلوب كأنها
 ينطقن معروفا وهن نواعم

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عينته التي يقول فيها:

للحادثات فهل تريني أجزع
 فتركنهم بددا وما قد جمعوا
 ولهن كان أخو المصانع تبع^(١)
 بأرض قومك أم بأخرى تصرع
 يبكي عليك مقنعا لا تسمع

ولقد علمت ولا محالة أنني
 أفنين عادا ثم آل محرق
 ولهن كان الحارثان كلاهما
 لا بد من تلف مصيب فانتظر
 وليتأتين عليك يوم مرة

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض
 من الممالك والشعوب ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد إليها الرحال.
 كوقفة البحري عند رسوم الإيوان ووقفة شوقي عند أطلال الحمراء.

ايوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي استلم البحري أحجاره، وطاف بأركانه كان مضرب المثل عند الأعراب فقد قيل لأعرابي:

كيف تصنع بالبادية إذا انتصب النهار، وانتعل كل شيء ظله؟ فأجاب وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أهدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى.

وقد حكى فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آله في عمارة بغداد. فقال له:

لا تفعل يا أمير المؤمنين. فقال: أبيت إلا التعصب للفرس. فقال: ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملة وديننا وقوما أذهبوا ملك بانيه لدين وملك عظيم، فلم يصنع إلى رأيه وأمر بهدمه فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة فتركه، فقال خالد: الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه، لئلا يقال عنك: عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة.

وقد تكون الحكاية صحيحة، وقد تكون خرافة تناقلها الناس ولكنها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد، أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس. والأندلس هي الفردوس المفقود. الذي يبكيه المسلمون ولتتنظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحري

وأريد بنفسية البحري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين هم بوصف الإيوان وقد رأيناه يذكر لذلك علتين: إحداهما في بداية القصيدة والثانية في النهاية أما الأولى فهي الهرب من الهموم ومن ظلم الأقارب بالفرع إلى طول الإيوان، ينسى في أكنافها حزنه وبثه، ويستودعها أساه وشجاءه وذلك حيث يقول:

صنت نفسي عما يدنس نفسي	وترفعت عن ندى كل جيس ^(١)
وتماسكت حيث زعزعتني الـ	دهر التماسا منه لتعسي ونكسي
بلغ من صبابة العيش عندي	طففتها الأيام تطفيف بخس
وبعيد ما بين واردة رفه	علل شربه ووارد خمس ^(٢)
وكان الزمان أصبح محمو	لا هواه مع الأخس الأخس
واشترائي العراق خطة غبن	بعد بيعي الشام بيعة وكس
لا ترزني مزاولا لاختياري	عند هذي البلوى فتنكر مسي ^(٣)
وقديا عهدتني ذا هنات	آيات على الدنيئات شمس
ولقد رايتني نبو ابن عمي	بعد لين من جانيه وأنس
وإذا ما جفيت كنت حريا	أن أرى غير مصبح حيث أمسي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال:

(١) الجيس: هو الدنيء الجبان.

(٢) الخمس: شر الإطماء.

(٣) لا ترزني: لا تمتحنني.

حضرت رحلي الموم فوجه — ست إلى أبيض المدائن عني
 أتسلى عن الحظوظ وآسى — لمحل من آل ساسان درس
 ذكرتهم الخطوب التوالي — ولقد تذكر الخطوب وتنسي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الإيوان. وليست الدار داره ولا
 الجنس جنسه، لأن لأهله نعى عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه بيا
 أمدهم من الكتائب في أيام القتال وذلك حيث يقول:

عمرت للسرور دهرا وصارت — للتعزي رباعهم والتأسي
 فلها أن أعينها بدموع — موقوفات على الصباية حبس
 ذاك عندي وليست الدار داري — باقتراب منها ولا الجنس جنسي
 غير نعى لأهلها عند أهلي — غرسوا من ذكائها خير غرس
 أيدوا ملكنا وشدوا قواه — بكما تحت السنور خمس^(١)
 وأعانوا على كتائب أريا — طبطعن على النحور ودعس
 وأراني من بعد أكلف بالأش — راف طرا من كل سنخ وأس^(٢)

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس ويكي
 المجد الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

(١) السنور: السلاح.

(٢) السنخ: الأصل والأجنس.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة مثورة تصف حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة فإننا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوث قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون:

(لما وضعت الحرب الشؤمي أوزارها وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب فقصدته من برشلونة وبينها مسيرة يومين بالقطار المجد والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط فبلغت النفس بمرآة الأدب وكحلت العين في ثراه بآثار العرب وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرم إلى حرم كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا تقارب غير العتق والكرم، طليطلة تطل على جسر البالي، وإشبيلية على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال، فإنه أبلغ من جلي الأثر وحيا الحجر ونشر الخبر وحشر العبر،

ومن قام في مآتم على الدول الكبرى، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفري حين تحمل عنه الملا، وعطل من الحلى، ووكل بعد المتوكل للبلبي، فرفع قواعده في السير وبنى ركنه في الخبر وجمع معاملة في الفكر حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن خلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه وهو تحت كسرى في رصه ووصفه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب (الفيح القسي في الفتح القدسي) بعد كلام:

(فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحري في وصفه، تجدوا الإيوان قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحري قد بقي بها كسرى في ديوانه أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه).

وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن ندى كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والمنايا موائل وأنوشر وان يزجي النصفوف تحت

فكنت كلما وقفت بحجر أو طفت بأثر بأبياتها واسترحت من موائل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وعظ البحري إيوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

(ثم جعلت أروض القول على هذا الروي وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة وأتممت هذه الكلمة الریضة وأنا أعرضها على القراء راجيا أن يلحظوها بعين الرضاء ويسحبوا على عيوبها ذیل الإغضاء).

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي فهو يسجع ولا يكاد يبين^(١) غير أنه قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة تسير مسير الأمثال كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان:

(يسري زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم).

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل).

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحري فهو عنده أبلغ من جلي الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي وكيف كان روح البحري يطيف به وهو يطوف بالحمراء.

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحري هو قوله:

والمناياموائل وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت

وكنا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان:

ليس يدرى أصنع إنس لجن سكونه أم صنع جن لإنس

(١) غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة وكان يرى نفسه أكتب الناس ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية ولكننا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس.

وقوله في بكائه:

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مآتما بعد عرس

ولشوقي رأيه، فقد يختلف النقد أحيانا باختلاف الأذواق.

حنين شوقي لمصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحري ابتداء سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان، والتنكر لظلم الأقرين، وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتداء سينيته بقطعة وجدانية تفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنها يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونهم، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد وإنه لبيكي ملاعب شبابه وعهود صباه حين يقول في مطلع هذه السينية:

اختلاف النهار والليل ينسي	فاذكري الصبا وأيام أنسي
وصفالي ملاوة من شباب	صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت	سنة حلوة ولسدة خلّس

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول:

وسلا مصر هل سلا القلب عنها	أو أسا جرحه الزمان المؤسي
كلما مرت الليالي عليه	رق والعهد في الليالي تقسي
مستطار إذا البواخر رنت	أول الليل أو عوت بعد جرس

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أئبه القارئ إلى روعة
الحسن في قوله:

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى
مصر أعضل من أن يطلب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال:

كلما مرت الليالي عليه رق والعهد في الليالي تقسي
مستطار إذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس

وها هو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق أو هب النسيم كما
كان يتحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسبه الغريب على شواطئ المحيط،
وأين وميض البرق، وهبوب الريح من أصوات البواخر في غسق الليل؟ ثم
قال:

يا بنة اليم ما أبوك بخيل ماله مولعا بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلا في خيث من المذاهب رجس

والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرءوها
يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام
العرفية لا قدر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة فقد كنا نتغنى بقول شوقي:

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

ثم يتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة نفرت عنها البلابل المغردة ثم صارت مأوى للبوم ومقيلاً للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين فكان شهيد الحرية محمد فريد يرسل الأمانى عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من سلسبيل النيل، ثم لا تجاب له طلبه، ولا يدنو منه مأمول في حين أن بلاد الفراغنة كانت مفتحة الأبواب لكل أئيم القلب، وقاح الوجه خبيث اللسان وسيظل قول شوقي:

أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس

سيظل هذا البيت مثلاً للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والأفنان وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيلاً، أما قوله:

كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس

فهو رمية مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد وسيظل غصة يشجى بها بعض الخلق، ثم قال في خطاب الباخرة:

نفسى مرجل وقلبي شراع	بهما في الدموع سيري وأرسي
واجعلى وجهك (الفتار) ومجرا	ك يد (الثغر) بين رمل ومكس
وطني لو شغلت بالخلد عنه	نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل	ظماً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفوني	شخصه ساعة ولم يخل حسي
يصبح الفكر والمسلة	ناديه وبالسرحة الزكية يمسي

وأى نفس يمثلها شوقي في هذا الشعر البديع إنه والله يمثل النفس المصرية وحسبي أن أقول: النفس المصرية، وهل في الدنيا - ولولا التقى لأضفت إليها الآخرة - وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناءه مثل وادي النيل؟

إن الذي يعيش في مصر وله ذوق شوقي وإحساسه ليس بكثير عليه أن يقول:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه	نازعتنى إليه في الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد في سلسيل	ظماً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى	شخصه ساعة ولم يخل حسى

ولقد كانت مصر ولا تزال باباً من الفتنة لكل من يمسى وله فيها رأي مطاع، وبفضلها يقول فرعون:

{ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون } ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده وهو يشاهد الأهرام: (أبهذه كفر فرعون بربه) فقال له أحد وزرائه: يا أمير المؤمنين إن الله يقول: { ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كان يعرشون } فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله لفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة وتغرس فيهم من الجبروت، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك، ويجب إليه العدوان، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في هذه البلاد!

ثم يقول شوقي وهو يمثل الجزيرة والنيل:

نغمت طيره بأرخم جرس
 من عباب وصاحب غير نكس
 قلبها لم يجن يوما بعرس
 بين صنعاء في الثياب وقس^(١)
 منه بالجسر بين عرى ولبس
 ه وإن كان كوثر المتحسي
 م الذي يحسر العيون ويخسي
 بجميل أو شاكر فضل غرس

وكانى أرى الجزيرة أيكاً
 هي بلقيس في الخمائل صرح
 حسبها أن تكون للنيل عرساً
 لبست بالأصيل حلة وشى
 قدها النيل فاستحت فتواتر
 وأرى النيل كالعقيق بواديـ
 ابن ماء السماء ذو الموكب الفخـ
 لا ترى في ركابه غير مثن

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه بل عاد إلى هجيره من
 النوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول:

لم تفق بعد من مناحة رمسي^(٢)
 وسؤال اليراع عنه بهمس
 وتجردن غير طوق وسلس^(٣)
 ن ييوم على الجبابر نحس
 ألف جاب وألف صاحب مكس
 حين يعشى الدجى حماها ويغسى

وأرى الجزيرة الحزينة ثكلى
 أكثرت ضجة السواقي عليه
 وقيام النخيل صفرن شعرا
 وكان الأهرام ميزان فرعو
 أو قناطره تسأنق فيها
 روعة في الضحى ملاعب جن

(١) قس: بالفتح موضع بين العريش والفرمء من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية.

(٢) يريد رمسيس.

(٣) السلس من قولهم: سلسلت النخلة إذا ذهب منها أصول السعف.

وكذلك يحسب شوقي وهو يندب مجد الفراعنة أن ما في الطبيعة من ماء ونبات وجمال يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء.

والشاعر حين يرضى يحسب الكون يتسم لابتهامه، وحين يغضب يحسب الكون يكتب لاكتتابه، ولعل هذه السذاجة هي أظرف ما في الشعراء إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال:

ورهبين الرمال أفضس إلا	أنه صنع جنة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه	سبع الخلق في أسارير إنسي
لعب الدهر في ثراه صيبا	والليالي كواعبا غير عنس ^(١)
ركبت صيد المقادير عينيـ	ه لنقد ومخلبيه لفرس
فأصابت به المالك كسرى	وهرقلا والعبقري الفرنسي

وهذا أيضا خيال شعراء فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث وأعدت لمخلبيه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات لما يظن هيهات، والويل لأمة تنتظر في خمود حتى يثار لها قعيد الصحراء.

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقة إنها هو الفن يقضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول -رضي الله عنه إن كان واليا جل جلاله إن كان إلها- معبود قديم طالما قدمت له القرابين

(١) عنس: جمع عناس وهي الفتاة بطول مكثها في دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من عداد الأبقار.

ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آبائهم من قبل ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح أسوة بما كان يفعل آبائهم الأقدمون. ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان (هداة الأمم) يثيرون ما ركذ فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات وعلى هذا النهج جرى شوقي فسيح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال والشاعر كالخطيب لا تهمه العقول إذا ظفر بالقلوب.

ثم عاد شوقي إلى قلبه وقد غمره الحزن فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين وانظر كيف يقول:

يا فؤادي! لكل أمر قرار	فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت لجة الأمور عقولا	كانت الحوت طول سببح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف	أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشمس نهارا	ويوم البدر ليلنة وكنس
ومواقيت للأمر إذا ما	بلغتها الأمور صارت لعكس
دول كالرجال مرتينات	بقيام من الجدود وتعس
وليال من كل ذات سوار	لطمت كل رب روم وفرس
سدت بالهلل قوسا وسلت	خنجرا ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون خوفو ودارا	وعفت وائللا وألوت بعبس
أين مروان في المشارق عرش	أموي وفي المغارب كرسي

وقفه قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه لمصر وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياءها حين قدها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجزيرة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين وأن النخيل تجردت من الحزن عليه فلم يبق عليها غير الشعور والأطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام ويتخيل أبا الهول قارعة عتيده لإهلاك الطغاة ثم رأيناه وقد عاود القلق على مصر، ولم يقنعه السكون إلى الخيال فأخذ يزفر من جديد ويقول:

يا فؤادي! لكتل أمر قرار فيه يبدو وينجلي بعد لبس

وأين هذا القرار، يا بلبل النيل، هاته، وخذ من أرواحنا ما تشاء!

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول:

عقلت لجة الأمور عقولا	كانت الحوت طول سبوح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف	أو غريق ولا يصاح لحس
فلك يكسف الشمس نهارا	ويسوم الدور ليلة وكس

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة وهي على جبروتها ألعوبة القدر وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي

عقلتها لجنة الخطوب والتي غرقت حيث لا يصاح لحس، ولا يصاح بظاف أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيدا هو غاية في إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب، والملك السليب، والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والشجى يبعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللاثمون!

ولم يصنع البحترى هذا الصنيع، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من صباية عيشه، وما كان من غبته حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رابه نبو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانبين، ثم قال:

حضرت رحلي الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنسي
أنسلي عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس

وهذا هو عين الاقتضاب ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ولكن المريب هو أن يزهد البحترى في حسن التخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال، وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينقل إليه وأشهر ماله في هذا الأسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضا عتاب وذلك حيث يقول:

يهون عليها أن أبيت متيا أعالج شوقا في الضمير مكنسا

حمى وصلها منذ جاورت أبرق
سلوا نهى الأحشاء أن تتضرما
يلم بنا وهنا إذا الركب هو ما

وقد تجاوزت أرض العراق
بكت حرقة عند الفراق وأردفت
فلم يبق من معروفها غير طائف

وفي هذه القصيدة يقول:

فأقتل نفسي حسرة وتندما
لما كان غروا أن ألوم وتكرما
تناسيه والود الصحيح المسلما
إليك على أي أخالك ألوما
به ولك العتبي علي وأنعمما
وإن صنع المعروف زاد وتمما

ولم أعرف الذنب الذي سؤتني له
ولو كان ما خبرته أو ظننته
أذكرك العهد الذي ليس سؤددا
أقربهما لم أجنه متنصلا
لي الذنب معروفًا وإن كنت
ومثلك إن أبدى الفعال أعاده

نقول: إن البحري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية وإنما أثر الاقتضاب
ولا كذلك شوقي فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب ثم
دخل في الموضوع برفق وهو يقول:

أموي وفي المغارب كرسى
نورها كل ثاقب الرأي نطس
ك تبل وتنتطوي تحت رمس
وشفتني القصور من عبد شمس

أين مروان في المشارق عرش
سقت شمسهم فرد عليها
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيه
وعظ البحري إيوان كسرى

نقرر هذا ثم نذكر أن البحري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل
هذه المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي لأن ظروف البحري وقد
ضاق به عيشه وظلمه أهله غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن

أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة ثم هو لا يدري إذا عاد يقر قراره فيلقي عصا التسيار أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد.

ولو كان للبحثري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحاله إلى الإيوان لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال ولكن الشاعر له رسالة يؤديها إلى أهل عصره ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكانت رسالة شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد وهم يودعون كل يوم فريقا من أبنائهم الأحرار ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار.. وكان له في ذلك البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل:

أحرام على بلابله السدو ح حلال للطير من كل جنس

وفي مقابلة يقول البحثري وهو يتحدث عن نفسه:

واشترائي العراق خطة غبن بعد بيعي الشام بيعة وكس

ولكن أين هذا من ذلك؟! وأين قول البحثري في عنف الدهر وجوره:

وكأن الزمان أصبح محمو لا هواه مع الأخس الأخس

ومن قول شوقي في المعنى نفسه:

عقلت لجة الأمور عقولا كانت الحوت طول سبيح وغس

غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاح لحس

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.

ومطلع البحري:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس

فيه ضعف وانحلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع

شوقي:

اختلاف النهار والليل ينسي فاذا كرا لي الصبا وأيام أنس

وإن كنا لا ندري بمن يستنجد وقد نسي أيام صباه ورحم الله ابن الأحنف

إذ يقول:

نزف البكاء دموع عينيك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرارا

من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرايت عينا للدموع تعار

ويذكرون أن لورد كرومر حضر عرسا مصريا وسمع المغني يقول:

(حبيبي غاب، هاتوه لي يا ناس) فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت

ووقف على مدلوله قال: (إن المصري لكسول وإنه ليطلب حتى من يعينه على

رد محبوبه الغائب) وكذلك يطلب شوقي من يجدثه عن أيام الأناج في عهد

الشباب وإنه لمطلب عجيب!

بين البحري وشوقي

ولقد أخذ البحري بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى،
ويتحدث عن بناته ويعرض بسكان القفار من الأعراب فيقول:

أنسلي عن الحظوظ وآسى	لمحل من آل ساسان درس
ذكررتيهم الخطوب التوالي	ولقد تذكر الخطوب وتنسي
وهو خافضون في ظل عال	مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابه على جبل القبـ	ق إلى دارتي خلائ ومكس
حلل لم تكن كأطلال سعدي	في قفار من البساسب ملس
ومساع لولا المحاباة مني	لم تطقها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهدن من الجد	ة حتى غدون أنضاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأنس	وأخلاقه بنية رمس
لو تراه علمت أن الليالي	جعلت فيه مأمنا بعد عرس
وهو ينيك عن عجائب قوم	لا يشاب البيان فيهم بلبس

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش
والتهاويل، ولنا إليه عودة فلنلاحظ الآن أن البحري يتحسس وهو يبين على أثر
الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى
الفروق، وترجع هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمع عن هذه المقارنة
من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد، ولهذا يقول في هدوء:

حلل لم تكن كأطلال سعدي في قفار من البساسب ملس

ومساع لولا المحاباة مني لم تطقها مسعاة عنس وعبس
وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليلى
ونؤى عفراء! ولم يجد شوقي ما يضطره إلى مثل هذه الموارد، إذا كان يتكلم عن
مجد المسلمين والعرب في بلاد إسلامية مجموعة الأهواء، ومن هنا نراه يقول في
وضوح وجلاء:

رب ليل سريت والبرق طرفي وبساط طويت والريح عنسي
أنظم الشرق في (الجزيرة) بالغر ب وأطوي البلاد حزنا لدهس
في ديار من الخلائف درس ومنار من الطوائف طمس
وربا كالجنان في كنف الزيتو ن خضر وفي ذرا الكرم طلّس
لم يرعني سوى ثرى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمسي
يا وقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسي
قربة لا تعد في الأرض كانت تمسك الأرض أن تميد وترسي
غشيت ساحل المحيط وغطت لجة الروم من شرع وقلّس
ركب الدهر خاطري في ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس
فتجلت لي القصور ومن فيها ما من العز في منازل قعس
ما ضفت قط في الملوك على نذ ل المعالي ولا تردت بنجس

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك ونحن نستعيد قول
البحتري:

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي

ولعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستعيد كذلك قوله:

نقل الدهر عهدن من الجدد حتى غدون أنضاء لبس
فكان الجرماز من عدم الأانس وأخلاقه بنية رمس

وفي هذين البيتين دقة وخيال وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل:
(أنضاء لبس) وكيف أمسى الجرماز وكأنه (بنية رمس) فأما قوله:

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس

فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، يتحكم فيه البلى، وتبطش بها أيدي
العفاء.

ونستجيد قول شوقي:

لم يرعني سوى ثرى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمس

ولمس العبرة من المعاني الدقيقة وقد بلغ غاية الرفق وهو يقول في تحية هذا
الثرى:

يا وقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحياما أمسي

ونستجيد كذلك قوله:

ركب الدهر خاطري في ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس

يصف تلك البقعة بالدروس ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب
خاطره الدهر ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس وتلك وثبة ومن وثبات
الخيال.

ثم أخذ البحري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال:

كيفة ارتعت بين روم و فرس
وان يزجي الصفوف تحت
أصف مختال، في صفة
في خفوت منهم وإغماض جرس
ومليح من السنان بترس
ء لهم بينهم إشارة خرس
تتقراهم ويدي بلمس

فإذا ما رأيت صورة أنطا
و المنايا موائل وأنوش
في اخضرار من اللباس على
وعراك الرجال بين يديه
من مشيح يهوى بعامل رمح
تصف العين أنهم جد أحياء
يغتلي فيهم ارتياي حتى

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، يذكر أنه شهد في الإيوان صورة
كسرى وهو يحاصر أنطاكية وأنتك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة
الفرس على الروم وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد صورة على الحائط؟ هذا هو
وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة لا يخطر ببالك أنها صورة
وإنما تحسب - لصدق التصوير - أنك في ميدان القتال والمنايا موائل أمامك
وأنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من
ألوان الثياب وما هم عليه من إثارة الخفوت، بين مشيح بالرمح، ومليح
بالسنان وانظر كيف يقول:

ء لهم بينهم إشارة خرس
تتقراهم ويدي بلمس

تصف العين أنهم جد أحياء
يغتلي فيهم ارتياي حتى

فهو يراهم جد أحياء وإن لم يسمع لهم صوت، لأن في سماتهم ما يدل على
اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة،
ثم يغلب على حسه فيرتاب فيما يراه فيلمس الصورة بيده ليعرف حقيقة هي أم

خيال؟ والمصور الحاذق هو الذي يسبغ على صورته أثواب الحياة. ولقد أذكر أني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة ولم أكد أملاً منها عيني حتى خلقتها تتقلب وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحري في الوصف وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور:

وكأنى بلغت للعلم بيتا
قد سافى البلاد شرقا وغربا
وعلى الجمعة الجلالة (والنا
ينزل التاج عن مفارق (دون)
سنة من كرى وطيف أمان
وإذا الدار ما بها من أنيس
ورقيق من اليوت عتيق
أثر من (محمد) وتراث
بلغ السنجم ذروة وتنأهى
مرمر تسبح النواظر فيه
وسوار كأنها في استواء
فترة الدهر قد كست سطرها
ويجها كم تزينت لعليم
وكان الرفيف في مسرح العي
وكان الآيات في جانيه
منبر تحت (منذر) من جلال

فيه مال العقول من كل درس
حجه القوم من فقيه وقس
صر) نور الخميس تحت الدرفس
ويحلى به جبين (البرنس)
وصحا القلب من ضلال
وإذا القوم ما لهم من محس
جاوز الألف غير مذموم حرس
صار (للروح) ذي الولاء الأمس
بين (نهلان) في الأساس
ويطول المدى عليها فترسي
ألفات الوزير في عرض طرس
ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
واحد الدهر واستعدت لخمس
من ملاء مدثرات الدمقس
يتزلن من معارج قدس
لم يزل يكتسيه أو تحت قس

ومكان الكتاب يغريك ربا ورده غائباً فتدنونو للمس
وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه تلك النفثة البحرية
من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحري وجد في الإيوان
صورة للحرب بين الفرس والروم وصورة الحرب تهز النفس وتثير ما كمن
فيها من عناصر القوة والفتوة، أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن لم
يذكر أكانت في وصف الجنة أم في الدعوة إلى القتال؟ والفن الذي يستمد قوته
من الأصول الدينية الوادعة الهادئة لا يصلح الا للكهول والويل للأمم إذا لم
تغلب عليها الفروسية ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحري:

والمنايا موائل وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت

وبين قول شوقي:

وعلى الجمعة الجلالة والنا صر نور انخميس تحت الدرفس

وشوقي يصف ما رآه فلا لوم عليه ولا تثريب وصدق من قال:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم . نطقت ولكن الرماح أجرت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد صور
المعارك والحروب ولم يظلم أحد أهل الشرق، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون،
فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب
(الأخلاق عند الغزالي) وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب.
وحيا الله أولئك الشياطين فهم ملائكة هذا الجيل وإن رزائل القوة لخير من

فضائل الضعف لو يعلم الشرقيون. ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت
لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسمية
يستبق إليها طلاب الرزق وللرزق أبواب، يدل على هذا قوله:

سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال
وإذا الدار ما بها من أنيس وإذا القوم ما لهم من محس

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك وما فيه من آثار
العقول ليس إلا سنة من الكرى وطيفا من الأمان.

ويعجبني قوله في وصف القصر:

ممر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ألفات الوزير في عرض طرس

وإن كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف، إذ
كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال والفرق بعيد بين الحسن الفاتن
والجمال الرائع فجمال النهر في الليالي المقمرة فيه حسن وفتنة وفيه أيام السرار
روعة وجلال.

وقول شوقي:

ومكان الكاتب يغريك ربا ورده غائبا فتدنو للمس

مأخوذ من قول البحري:

يغتلي فيهم ارتياي حتى تتقراهم ويدي بلمس

وبيت البحري أجود في معناه وهو كذلك يقتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب، وقول شوقي بعد ذلك الوصف:

صنعة (الداخل) المبارك في الغر ب وآل له ميامين شمس

فيه ضعف وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة وما أغنى الشعر عن مثل

هذا التذييل!!

الفصل بين البحري وشوقي

رأينا كيف وصف البحري ما رآه في الإيوان من رسم الموقعة بين الفرس والروم ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبح بها في الإيوان فقال:

قد سقاني ولم يصرد أبو الغو	ث على العسكرين شربة خلس
من مدام تقولها هي نجم	أضواء الليل أو مجاجة شمس
وتراها إذا أجدت سرورا	وارتياحاً للشارب المتحسي
أفرغت في الزجاج من كل قلب	فهني محبوبه إلى كل نفس
وتوهمت أن كسرى ابروي	مز معاطى والبلهذ أنسي
حلم مطبق على الشك عيني	أم أمان غيرن ظني وحمدي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول كما فعل البحري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد إذ لا تقتضيها الموازنة ولا يدعو إليها التفصيل ونحن نستملح قوله:

من مدام تقولها هي نجم أضواء الليل أو مجاجة شمس

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال وعجز هذا البيت يشفع لصدره.

وقد تدخل اللفظة في شفاة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء:

وتراها إذا أجدت سرورا . . . وارتياحا للشارب المتحسي
أفرغت في الزجاج من كل قلب . . . فهي محبوبة إلى كل نفس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب. ولا تنسى أنه يقول (من كل قلب) وإنما لذلك (محبوبة إلى كل نفس) فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحرى فتوهم - ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله - أن كسرى نديمه، والبلهذ أنيسه، وكيف تاب إلى رشده وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غيرن ظنه وحدسه. وفي هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال:

وكان الإيوان من عجب الصـ
يتظنى مسن الكآبة أن يبـ
مزعجا بالفراق عن أنس ألف
عكست حظه الليالي وبات المشـ
فهو ييدي تجلدا وعليه
لم يعبه أن بز من بسط الديقـ
مشمخر تعلو له شرفات

سنة جوب في جنب أرعن جلس
بدو لعيني مصبح أو ممسي
عز أو مرهقا بتطبيق عرس
ترى فيه وهو كوكب نحس
كلكل من كلاكل الدهر مرسي
اج واستل من ستور الدمقس
رفعت في رءوس رضوى وقدس

لابسات من اليباض فما
ليس يدري أصنع إنس لجن
تبصر منها إلا فلائل برس
سكنوه أم صنع جن لإنس
غـير أني أراه يـشهد إن لم
يك بانیه في الملوك بنكس

وفي هذه القطعة نجد البحري يتمثل الإيوان في صورة المحب أترعت الليالي كأسه بأنس أليفه، ثم أزعجته بالفراق، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل، ثم أرهقه بالطلاق، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح مثار الشجى، مبعث الأسى، بعد أن كان من مرابع الغزلان، وملاعب الحور الحسان!! وانظر كيف يقول:

فهو ييـدي تجلدا عليه
كلكل من كلاكل الدهر مرسي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحري كائنا حيا أناخ الدهر عليه بكلكله وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد، وتثير دفين الإحساس فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني أي شيطان أو أي ملاك أوحى إلى البحري: أن الإيوان أصبح - وقد استلت منه ستور الدمقس وبسط الديداج - شبيها بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حيناً وتغريك بالفتون أحيانا؟

ونحن نعيذ القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف فهذا والله ما نفهمه من قول البحري:

لم يعبه أن بز من بسط الديويا
ج واستل من ستور الدمقس

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلاه كالعادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر أم من سكر الدلال.

وما نريد أن نزيد! وللقارئ أن يتأمل حسن الأداء في قوله:

عكست حظه الليالي وبيات المشى ترى فيه وهو كوكب نحس

فإنه لم يقل (بات المشتري فيه كوكب نحس) وإنما قال (بات المشتري فيه وهو كوكب نحس) وكلمة وهو؛ لها ما لها من الفضل في تأكيد المعنى وتقريره عند علماء المعاني وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات الإيوان:

لابسات من البياض فما تبصر منها إلا فلائل برس

فإن كلمة (من) لها هنا موقع جميل وهي أدل على التقليل من التنوين.. أما قوله:

ليس يدري أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب، وهي خرافة قديمة تزخر بها الأساطير وهي كذلك مورد من موارد الخيال، وكان من المستهجن أن يعقب البحثري على هذا البيت الفرد بقوله:

غسير أني أراه يــــشهد أن لم يك بانئه في الملوك بنكس

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد.. وقد عاد إلى وصف ما في

الإيوان فقال:

فكأنني أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حسي

وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس

وكان القيان وسط المقام
وكان اللقاء أول من أمس
وكان الذي يريد اتباعا
عمرت للسرور دهرا وصارت
فلها أن أعينها بدموع
صير يرجحن بين حو ولعس
ووشك الفراق أول أمس
طامع في لحوقهم صبح خمس
للتعزي رباعهم والتأسي
موقفات على الصباية حبس

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد
البحثري في أعطاف الإيوان، والبحتري بهذا الوصف فتان يقول على علم
ويعرف ما يعني ولك أن تتأمل كلمة كأن وموقعها الجميل في قوله:

وكان الوفود ضاحين حسرى
من وقوف خلف الزحام وخنس
وقوله:

وكان القيان وسط المقام
صير يرجحن بين حو ولعس
وقوله:

وكان اللقاء أول من أمس
س ووشك الفراق أول أمس
وقد دلت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة فلينهل بعد ذلك
من رحيقها كما يشاء.

نقطة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال:

من حمراء جللت بغبار الدهر
ر كالجرح من برء ونكس

كسنا البرق لو محاً الضوء لحظاً
 حصن غرناطة ودار بنى الأحم
 جلل الثلج دونها رأس شيرى
 سرمد شيبه ولم أر شيبيا
 مشت الحادثات في غرف الحمرا
 هتكت عزة الحجاب وفضت
 عرصات تخلت الخيل عنها
 ومغان على الليالي وضاء
 لا ترى غير وافدين على التـ
 نقلوا الطرف في نضارة آس
 وقباب من لا زورد وتبر
 وخطوط تكفلت للمعاني
 وترى مجلس السباع خلاء
 لا الثريا ولا جوارى الثريا
 مرمر قامت الأسود عليه
 تشر الماء في الحياض جمانا

لمحتها العيون من طول قبس
 ر من غافل ويقظان ندس
 فبدا منه في عصائب برس
 قبله يرجى البقاء وينسي
 ء مشي النعي في دار عرس
 سدة الباب من سمير وأنس
 واستراحت من احتراس وعس
 لم تجد للعشي تكرار مس
 أاريخ ساعين في خشوع ونكس
 من نقوش وفي عصارة ورس
 كالربا الشم بين ظل وشمس
 ولألفاظها بأزين لبس
 مقفر القاع من ظباء وحنس
 يتزلن فيه أقمار أنس
 كلة الظفر لينات المجس
 يتزى على ترائب ملس

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود وكلف منذ بعيد بالإنبابة عن عدوان الحوادث والإفصاح عن عسف الخطوب ويكاد يستنطق الموت وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق.. وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين برء

ونكس وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج إليه أحفاد بناته فيعدونه
ويمنونه لو تنفع الأمانى أو تصدق الوعود ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة
الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد؟ ولكن أين فتوة العرب وأين
شباب الزمان؟ وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء
مشي النعي في دار عرس فهذا أيضا خيال رائع وهو مأخوذ من قول أبي نواس:
فتمشيت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقيم

ما لنا ولهذا التكلف؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق على أن
تشبيهه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس أروع من تشبيه
أثر الخمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم وقول شوقي:

مشت الحادثات في غرف الحمراء سراء مشي النعي في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس

فيه روعة وفيه جلال فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ويصور مع هذا
ما كان للحمراء من عزة وسلطان.. أما قوله:

وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار أنس

فهو وصف انفراد به ولم يعرض لمثله البحري وكان عجبا أن يغفل عن
إيراده فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب
من كل ممشوقة القدمجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ولا أعبر
بغير ذلك فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس ويرونه حسبهم
من نعيم الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع
حين قال:

بعد عرك من الزمان وخرس	آخر العهد بالجزيرة كانت
باد بالأمس بين أسر وحس	فترها تقول: راية جيش
باعها الوارث المضيع ببخس	ومفاتيحها مقاليد ملك
عن حفاظ كموكب الدفن خرس	خرج القوم في كتائب صم
تحت آبائهم هي العرش أمس	ركبوا بالبحار نعشا وكانت
لمشت ومحسن لمخس	رب بان لهادم وجموع
لجبان ولا تسنى لجبس	إمرة الناس همّة لا تأتي
وهي خلق فإنه وهي أس	وإذا ما أصاب ببيان قوم

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في
أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد، إذ كانت إمرة الناس
لا تتسنى لجبس ولا تتأتى لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض
إلا بعد عرك من الزمان وخرس. والحق أن فتح العرب للأندلس كان من
الأحداث الخطيرة وكان من الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة وأن يحل بهم ما
حل بالفرس والروم ولا أذكر ما شب في صدورهم من نار العداوة والبغضاء،

ولا ما شجر بينهم على الملك من الخلاف ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ولكن أذكر أنهم كانوا يحتلون بلادا لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الأبدن كما يتوهم الفاتحون وإنما يظل ضعفها يفتك بالغايبين في خفاء كما تفتك على ضعفها الجرائم ثم ينفض هذا الضعف فجأة فإذا هو جارفة قوية تسقط من بأسها الممالك وتطيح من هولها العروش، فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ألم تتأثر تلك الشعوب لنفسها من الدين؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوسوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيره كالخرقة البالية لا تصلح لزينة ولا ستر ولا وقاية؟ اسمع يا صاح.

القوة هي كل شيء في هذا الوجود، والقوة فوق الحق فإن أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة القوة هي السلاح. ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب.

وكذلك كان العرب فقد ركبوا البحر وهم أقوياء فكان عرشا وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشا، وما تغير البحر ولكن تغير الناس ركبوه أول مرة وهم فاتحون ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار.

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار:

يا ديارا نزلت كالخلد ظلا	وجنى دانيا وسلسال أنس
محسنت الفصول لا ناجر فيها	أبقيظ ولا جهادى بقرس
لا تحس العيون فوق رباها	غير حور حو المرافف العس

كسيت أفرخي بظلك ريشا
هم بنو مصر لا الجميل لديهم
من لسان على ثنائك وقف
حسبهم هذه الطلول عطات
وإذا فاتك التفات إلى المسا
وربا في رباك واشتد غرسي
بمضاع ولا الصنيع بمنسي
وجنان على ولائك حبس
من جديد على الدهور ودرس
ضي فقد غاب عنك وجه التآسي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات فقد طال الحديث إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس وغنمنا معها (قطعة خشب) من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المهذب حسين شوقي ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين.

وسيدكر القارئ بعد هذا كله أي أوازن بين البحري وشوقي وسيسأل أيهما أشعر وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.. أما أنا فقد حكمت والسلام^(١).

(١) بمناسبة سينية البحري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوي وضع قصيدة سينية عن أبي الهول كان فيها معنى المعارضة للبحري وإن لم يقل ذلك وهي قصيدة جيدة نختار منها قوله:
نبوع الناس أبا الهول أنا
لم يعيننا أنا بلتنا شعوب
كل من ساءنا أذقناه سوءا
فاسألوا الروم ما دها الروم فينا
أمم تلك ذات ناب وخرس
فنيست كلها ونحن بقينا
أمة كالحديد صلب المجس
وبلونا الشعوب من كل جنس
بيد الله كل كاس بكاس
واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
قد مضغنا ما بين ناب وخرس
من حمى الله في حظيرة قدس

البوصيري وشوقي

للبوصيري قصيدة مشهورة تسمى (البردة) عارضها شوقي بقصيدة سماها نهج البردة. وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام فقد عني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن ودرء ما يوجه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ. وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص. وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حياة البوصيري

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج كان أحد أبويه من (أبو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منها نسبة وقيل: (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري.. وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويياشر الشرقية ببليس^(١).

وللهراوي قصيدة أخرى سينية هي بلا شك من وحي البحري وهي قصيدته التي وقف بها على دار الشيخ محمد عبده في عين شمس وكان من الحتم أن يشير إلى ذلك ليبين كيف سرت أنفاس البحري إلى شعراء هذا الجيل.

(١) توفي البوصيري سنة ٦٨٥هـ وله قبر مشهور في الإسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية.

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجري في شعره النكت المستملحة وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره وأحسبه من الصادقين فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمر، وإن من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل مال الأيتام.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعاية قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف:

أهوى والمشيب قد حال دونه	والتصابي بعد المشيب رعونه
أبت النفس أن تطيع وقالت	إن جبي لا يدخل القئينه
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي	باطهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضة خدر	ذات حسن كالدرة المكنونه
سمتها قبله تسربها النفـ	س فقالت كذا أكون حزينه
قلت لا بد أن تسيري إلى الدا	ر فقالت عسى! أنا مجنونه!
قلت سيري فإنني لك خير	من أب راحم وأم حنوننه
أنا نعم القرين إن كنت تبغـ	ين حلالا وأنت نعم القرينه
قالت اضرب عن وصل مثلي	ما واضرب الخلل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسني يد شيخ	كيف أرضى به لطشتي مشينه
قلت إني كثير مال فقالت	هبك أنت المبارز القارونه

وهذا شعر ضعيف ولكن فيه (حكاية ظريفة) من حكايات مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه.

وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها إلى ناظر الشرقية وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته فكتب على لسانها إليه:

يا أيها السيد الذي شهدت	أخلاقه لي بأنه فاضل
ما كان ظني يبيعي أحد	قط ولكن صاحبي جاهل
لو جرسوه على من سفه	لقلت غيظا عليه يستاهل
أقصى مرادي لو كنت في بلدي	أرعى بها في جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحمل لكم	أخذي لأنني من سيدي حامل

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ورد إليه الحمارة ولم يكن فيها من الزاهدين!

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله وهي قصيدة طريفة يذكر فيها أنه فقير وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد.. وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال فأشارت عليها بضربه وتنف ذقنه شعرة شعرة، وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير:

إليك نشكو حالنا أننا	حاشاك من قوم أولي عسره
في قلة نحن ولكن لنا	عائلة في غاية الكثره
أحدث المولى الحديث الذي	جرى لهم بالخيط والإبره
ضاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن أبصرهم عبره

ما برحت والشربة الجره
 في كل يوم تشبه النشبه
 تنزهوا في الماء والخضره
 قمح ولا خبز ولا فطره
 في كف طفل أو رأوا تمره
 بشهقه تتبعها زفره
 قطعت عنا الخبز في كره
 بسدرهم ورق ولا نقره
 تخدمهم يا أبت سخره
 والأخت في الغيرة كالضره
 وصبرها مني على العشره
 كذا مع الأزواج يا عره
 تخلف منك ولا فتره
 أو انتفيها شعرة شعره
 فإن زوجي عنده ضجره
 طلقني قالت لها بعره
 فجاءت الزوجه مجتره
 فاستقبلت رأسي بأجره
 أن ينظر المولى له أمره

إن شربوا فالبر زير لهم
 لهم من الخييز مسلوقة
 أقول مها اجتمعوا حولها
 وأقبل العيد وما عندهم
 فارحهمو أن عاينوا كعكة
 تشخص أبصارهمو نحوها
 كم قائل يا أبتا منهمو
 ما صرت تأتينا بفلس ولا
 وأنت في خدمة قوم فهل
 ويوم زارت أمهم أختها
 وأقبلت تشكو لها حالها
 قالت لها كيف تكون النسا
 قومي اطلبي حقك منه بلا
 وإن تأبى فخذي ذقنه
 قالت لها ما هكذا عادي
 أخاف إن كلمته كلمة
 وهونت قلدي في نفسها
 فقالتني فتهددتها
 وحق من حالته هذه

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ولا تزال بقاياها موجودة في بلييس^(١).

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيدة فإن قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المولدون. وقد مدح الرسول في حياته، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها:

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول متميم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ومدحه الأعشى بداليتها التي يقول فيها:

فأقسمت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجى حتى تلاقي عمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى ويظنها من وضع الرواة، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية.. وكذلك بانث سعاد لأن المدح الذي جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئا عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد موجهها إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن الباقية. ودفع ما وصم به الرسول

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب المدائح النبوية في الأدب العربي..

من النقائص والعيوب وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقرباً إلى الله وهي عند الصوفية من جملة الأوراد.

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة فقال: (كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه علي صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهي بيده المباركة وألقى علي بردة فانتبهت ووجدت في نهضة فقممت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها فقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبتني وألقى علي من أنشدها بردة فأعطيته إياها وذكر الفقير ذلك وشاع المنام).

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري فهو رجل فيه طيبة وسذاجة وكأكثر الصوفية فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها أو قصيدة ينشدها كما يرى البوصيري بقصيدته ولو مرض مفتي الديار المصرية - لا سمح الله - ما استغنى بالبردة عن الطبيب. ولعل حكاية البوصيري هذه

هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون. وهذا النوع من الغفلة قديم فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن.. ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة (صلى الله عليه وسلم) خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية. فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر.. وما حوت الأشجار من ورق وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطير والأسماك والأنعام وعدد الجن والإنس والأملاك وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر.. وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق ومد كانوا ومد حشروا وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد:

أهل السموات والأرضين أو يذروا	في كل طرفة عين يطوفون بها
والفرش والعرش والكرسي وما حصروا	ملء السموات والأرضين مع جبل
لذوما صلاة دواماً ليس تنحصر	ما أعدم الله موجوداً وأوجد معـ
ركما تحيط بالحد لا تبقى ولا تنذر	تستغرق العدم مع جمع الدهو

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب دلائل الخيرات.

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية وقد كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك ولهذا الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكارا لحج الخديو السابق سنة ١٢٢٧هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحاً وجيزاً بينما قال في نهايته (ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه وفصل مجمله وأفشى معناه ونزل عند مغازيه وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه وأرسل للإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يوماً إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره أطال القول وتجاوز القصد).

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشري وهذا كلام نقوله لأهميته في تاريخ الآداب فإن شاء الشيخ عبد العزيز أيده وإن شاء نفاه^(١).

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام، وساجلناه في جريدة البلاغ وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح وكان الشيخ سليم رحمه الله غنياً بفضل الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل ولكن هذا ما وقع وليت شعري كيف نظمنا إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق خبراً قامت الشواهد على صحته ونحن شهود العصر الذي وقع فيه.

ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له. فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتجها الشعراء من معانيه وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه، ثم قال:

(فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعراء إذا حققت) وكان الظن يصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين.

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيدا للموازنة بين البردة ونهج البردة وإنا لنترجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغناء.

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب ونحا شوقي منحاه وتلك عادة عربية قديمة لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجيل وإن كان من قدمائهم من نالها بملام كالمتنبي إذ يقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول فكان يريدوهم يؤولونه ويرونه موجهها إلى الذات الإلهية أو الحضرة النبوية ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كتب التوحيد ليقف على شيء من تصوّرات أولئك الناس فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون وجعلوه نوعا من الرمز والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح بما يجري بين عشاق الأشباح إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة وهي افتتاح الشعر بالنسيب وهي عادة لم يقلع عنها شوقي وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في مشروع ملنر، فقد افتتحها بهذه الأبيات:

من ربرب الرمل ومن سربه	اثن عنان القلب واسلم به
مرتجة الأرداف عن كثبه	ومن تثني الغيد عن بانه
يغلسبن ذا اللب على لبسه	ظباؤه المنكسرات الظبا
من ناعم الدر ومن رطبه	بيض رقاق الحسن في لمحة

ذوابل النرجس في أصله يوانع الورد على قضبه
 زن على الأرض سماء الدجى وزدن في الحسن على شهبه
 يمشين أسراباً على هينة مشي القطا الأمن في سربه
 من كل وسنان بغير الكرى تتبه الأجال من هدبه

وهي قصيدة طويلة ثلثها في النسيب ويذكر شوقي أنه قالها كارها ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً من المنحة التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك، وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر أنني رأيت في كلام القدماء ما يؤدي هذا المعنى فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد، ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء ولا تقل: كان الأدب يقضي بتجنب هذا المنهج في المدائح النبوية فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول فما لامه النبي ولا أنكرها عليه أصحابه ولا أخذها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه مجرى المحاكاة والتقليد فإننا نراه يقول في مطلع البردة:

أمن تذكر جيران بلذي سلم مزجت دمعا جرى من مقللة بدم
 أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من أضم

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت وفيه يقول كثير:

إلى الميث من ريعان ذات المطارب أمن آل سلمى دمنة بالذنائب
بذي سلم أطلالها كالذواهب يلوح بأطراف الأجدة رسمها

وكاظمة جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول
بعض الشعراء:

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة يسعى على قصرات المرخ والعشر
لله در بيوت كان يعشقهها قلبي وبالفها أن طيبت بصري
فقدتها فقد ظمآن أداوته والقيظ يقذف وجه الأرض بالشرر
أمنية النفس أن تزدار ثانية وحالنا والأمانى حلوة الثمر

وأضُم واد بجبال تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة وفيه يقول سلامة بن
جندل:

يا دار أسماء بالعلياء من أضُم بين الدكادك من قو فمعصوب
كانت لها مرة دارا فغيرها مر الرياح بسافي الترب مجلوب

وذكر البوصيري لهذه المواطن وشغفه بها وحنينه إليها ينافي مصريته وكان
له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه
في سنترس وأسيوط ولكن يظهر أن المعاني العربية كانت احتلت رءوس
الشعراء فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد ولسع وأروند، وإن لم يكن لهم
بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتياق ولذلك نجد التكلف
ظاهرا في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم ونحسبه اختارها للقافية كما
اختار (أضُم) لهذا الغرض وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن
أروند ببغداد:

وقالت نساء الحى أين ابن أختنا
 رعاه ضمان الله هل في بلادكم
 فإن الذي خلفتموه بأرضكم
 أبغداد كم تنسيه أروند مربعا
 فدتن نفسي لو سمعن بما أرى
 ألا خبرونا عنه حيثمو وفدا
 أخو كرم يرعى لذي حسب عهدا
 فتى ملأ الأحشاء هجرانه وجدا
 ألا خاب من يشري ببغداد أروندا
 رمى كل جيد من تنهده عقدا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن
 لصلتها بمدينة الرسول وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة
 وتقليدا ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية وحن إلى مغنى من مغاني
 النيل^(١). ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وإنما أطلق نفسه من ربة التقليد فلم يتحدث عن نجد ولا عن تهامة وإن
 غلبت عليه بعض الأخيلة العربية فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من
 خيال الأعراب فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف ويظنون لا عاصم لهم
 من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال:

أمسن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعا جرى من مقله بدم

فإن قوله: (جرى من مقله) حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض
 الشيوخ من أن ذلك تأكيد فإنه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.

(١) في كتاب (المدائح النبوية) توجيه لكلام البوصيري فارجع إليه هناك.

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة (على القاع) في قول شوقي (ريم على
القاع بين البان والعلم)

أما قوله:

(أحل سفك دمي في الأشهر الحرم)

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع وفيه براعة استهلال وهو كذلك غاية
في حسن الأداء، وقول البوصيري:

فما لعينيك إن قلت اكفها همتا وما لقلبك إن قلت استفق بهم

فيه ضعف وإبتدال وهو غير موصول بسابقه وقد انتقل قبل أن يتم المعنى
فقال:

أيجب الصب أن الحب منكم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقى لذكر البان والعلم

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.

وقد يستجاد قوله:

فكيف تنكر جبا بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم
وأنبت الوجد خطى عبرة وضنى مثل البهار على خديك والعنم

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال فإننا نجد
البوصيري يقول:

نعم سرى طيف من أهوى والحب يعترض اللذات بالألم

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى . أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين قال:
يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أسهرت مضناك في حفظ الهوى
أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى أغراك بالبخل من أغراه بالكرم
سرى فصادف جرحا داميا فأسا ورب فضل على العشاق للحلم
والفرق بين قول البوصيري:

(نعم سرى طيف من أهوى فأرقتني)

وبين قول شوقي:

(سرى فصادف جرحا داميا فأسا)

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب وهو صاحب هذا البيت البديع:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء^(١)

وقول شوقي (ورب فضل على العشاق للحلم) أرفق من قول البوصيري:

(والحب يعترض اللذات بالألم) أما قول شوقي:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أسهرت مضناك في حفظ الهوى

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون وفي قوله:

أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى أغراك بالبخل من أغراه بالكرم

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا: إنه نظرة سينائية، ولكن قد يتفق أحيانا أن تتلاقى

القلوب بأسرع من ذلك، وللقلوب وثبات أسرع من البرق.

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب فهو يغري المحبوب بالبخل ويغري
طيفه بالجود، وساحة الطيف باب إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

ويقول شوقي:

يا لائمي في هواه والهوى قدر لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم

وبيت شوقي أجمل وقوله (الهوى قدر) من أبداع ما قيل في دفع العذل
والملام^(١).

أما قوله (لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم) فهو أجود في معناه من قول
الشريف الرضي:

أقول للائم المهدي ملامته ذق الهوى وإن اسطعت الملام لم

ومن قول ابن الفارض:

دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله:

عدتك حالي لا سرى بمستتر عن الوشاة ولا دائي بمنحسم

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول في حوار لائمه:

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال: إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية: (وعد ومكتوب
علي ومقدر عاجبين) ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي: (والهوى قدر).

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب متصت والقلب في صمم

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته ولكنها قد ترحزه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذنا غير واعية وقلبا غير سميع. ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ووصف لائمه بنصح الحبيب حين قال:

محضتني النصح لكن لست إن المحب عن العذال في صمم

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب فلنقف قليلا عند المعاني التي انفرد بها شوقي وإنا لنستجيد قوله:

رمى القضاء بعيني جوذر أسدا يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

وهذا معنى قديم والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء فهو لا يذكر أن الجؤذر رماه.. وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جوذر والقضاء خبير بأنواع النصال!

وقد بلغ غاية الرقق في قوله:

لما رنا حدثني النفس قائلة
جحدتها وكنمت السهم في كبدي
يا وريح جنبك بالسهم المصيب رمي
جرح الأحبة عندي غير ذي ألم
إذا رزقت التماس العذر في الشيم
رزقت أسمح ما في الناس من خلق

والبيت الأخير يمت إلى ما قبله بصلة ضعيفة، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب والذي يكتم جرح الحب لا يصفح لمحجوبه عن جناية فما هذا المن على الجمال!

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي:

ان كان سر كمو ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضا كمو ألم

ثم أخذ شوقي يصف هذا السراب الذي صحب حبيبته فقال:

من الموائس باتا بالربا وقتنا	اللاعبات بروحي السافحات دمي
السافرات كأمثال البدور ضحى	يغر ن شمس الضحى بالحللى والعصم
القائلات بأجفان بها سقم	وللمنية أسباب من السقم
العائرات بألباب الرجال وما	أقلن من عثرات الدل في الرسم
المضمرات خدودا أسفرت وجلت	عن فتنه تسلم الأكباد للمضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفا	أشكاله وهو فرد غير منقسم
من كل بيضاء أو سمراء زيتا	للعين والحسن في الأرام كالعصم
يرعن للبصر السامي ومن عجب	إذا أشرن أشرن الليث بالعلم
وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربا	يرتعن في كنس منه وفي أكبم

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستملح منها قوله:

العائرات بألباب الرجال وما أقلن من عثرات الدل في الرسم

فقد جعلهن يمشين على القلوب فيعثرن بقلب بعد قلب وإن لم يسلمن من عثرات الدلال وهن يتخطرن في الضحى وعند الأصيل.

وأستجيد كذلك قوله:

يرعى للبصر السامي ومن عجب إذا أشرن أشرن الليث بالعلم

فقد وصفهن بالخضر والحياء وذكر أنهن يرعن حين تسمو إليهن العين
والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهيوب. وكان من العجب أن يأسر هؤلاء
الخفريات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب وما أروع قوله بعد ذلك في
خطاب محبوبته:

يا بنت ذي اللبد المحمي جانبه ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الريم من ضرغامة قرم
بيني وبينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك إلا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من أرم

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنما
لصناع! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس، وتعييس الدنيا
حين يعبس ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها
وحياؤها ظبية تتشى أو غصنا يמיד.

وقول شوقي:

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الريم من ضرغامة قرم

أجود في معناه من قول الطغرائي:

أتى أريد طروق الحى من أضم
يجمون بالبيض والسمر اللدان به
وقد هماه رماة من بني ثعل
سود الغدائر حمر الحلى والحلل

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن
ينبت الغصن من السيف الذكر ويخرج الريم من الضر غامة القرم!

وقول شوقي:

بيني وبينك من سمر القنا حجب
لم أغش مغناك إلا في غضون كرى
ومثلها عفة عذريسة العصم
مغناك أبعد للمشتاق من إرم

أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي:

نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها
نصاها بمياه الغنج والكحل^(١)
ما بالكرائم من جبن ومن بخل
حرى ونار القرى منهم على القلل
وينحرون كرام الخيل والإبل
تبيت نار الهوى منهن في كبد
يقتلن أنضاء حب لا حراك بهم

(١) الغنج: حلاوة العينين.

قصيدة البارودي

ونريد أن نلم إمامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سهاها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبنائها - كما قال - على سيرة ابن هشام، والبارودي شاعر فحل يعتز به تاريخ الأدب في مصر وقد نوازن بينه وبين أبي فراس، ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ليكون الموضوع أوفى.. وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتمييز فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال:

واحد الغمام إلى حي بنذي سلم
أخلاف سارية هتانة القديم
ري النواهل من زرع ومن نعم
بردا من النور يكسو عاري الأكم
يختال في حلة موشية العلم
أحق بالري لكني أخو كرم
وديعة سرها لم يتصل بفمي
بي الصبابة لعب الريح بالعلم
في القلب منزلة مرعية الذمم
شوقا يفل شباة الرأي والهمم

يا رائد البرق يمم دارة العلم
وإن مررت على الروحاء فامر لها
من الغزار اللواتي في حوالها
إذا استهلت بأرض نمنمت يدها
ترى النبات بها خضرا سنابله
أدعو إلى الدار بالسقيا وبى ظمأ
منازل لهواها بين جانحتي
إذا تنسمت منها نفحة لعبت
أدر على السمع ذكراها فإن لها
عهد تولى وأبقى في الفؤاد له

إذا تذكرته لاحت مخايله
فما على الدهر لو رقت شمائله
تكاء دتني خطوب لو رميت بها
في بلدة مثل جوف العير لست
لا أستقر بها إلا على قلق
إذا تلفت حولي لم أجد أثرا
فمن يرد على نفسي لباتها

للعين حتى كأني منه في حلم
فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
مناكب الأرض لم تثبت على قدم
فيها سوى أمم تخنوع على صنم
ولا أذ بهما إلا على ألم
إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمي
أو من يجير فؤادي من يد السقم

وهذا شعر جزل رصين تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المغاني العربية ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعا فيتحول إليه حتى لتحسبه نسي المعنى الأصيل، ألا ترى كيف استسقى للروحاء وهذا هو الغرض الأول ثم مضى في وصف السارية الهتانة القديم فقال:

من الغزار اللواتي في حوايلها
إذا استهلكت بأرض نممت يدها
تري النبات بها خضرا سنباله
ري النواهل من زرع ومن نعم
بردا من النور يكسو عاري الأكم
يختال في حلة موشية العلم

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاء دته من الخطوب وما مني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام.. لا يستقر به إلا على قلق.. ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل، نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية: أن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارئ حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية فإننا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول:

كان حمول المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين بن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق عباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفائل باليد

وتراه يهم بالحديث عن نفسه فيقول:

وإني لأمضي الهمة عند احتضاره بهوجاء مرقال تسروح وتغتدي

ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه قال من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتا، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول:

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وكذلك نجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد:

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول:

صاف بأبطح أضحى وهو مشمون
من صوب سارية بيض يعاليل

شجت بذى شيم من ماء محنية
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه

وتراه يقول في بعد محبوبته:

إلا العتاق النجيات المراسيل

أمست سعاد بأرض لا يبلغها

وكان هذا كافيا في الإبانة عن بعد الشقة ولكنه وصف الناقة التي تبلغه
تلك الأرض بنحو عشرين بيتا، ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من
استعطاف الرسول فقال:

إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
لا أهينك إني عنك مشغول
فكل ما قدر الرحمن مفعول
يوما على آلة حدباء محمول
والعفو عند رسول الله مأمول
نافلة القرآن فيها مواعظ وترتيل
أذنب وإن كثرت في الأقاويل

تسعى الوشاة بجنيها وقولهمو
وقال كل خليل كنت آمله
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكمو
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
أنبئت أن رسول الله أوعدي
مهلا هداك الذي أعطاك
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف
أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء وكيف انتقل من الحديث عن
وجده إلى الحديث عن غربته ولنذكر الآن شاهدا آخر تؤيد به اختياره لهذا
الأسلوب.

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق وصفا لا زخرف فيه إذ قال: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها}.

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما).

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت: (ولما كان ليلة بات النبي صلى الله عليه وسلم في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعا معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد وقال رجل آخر: الغار! فقال أمية بن خلف: ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى إنه قبل أن يولد محمد).

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة (هي أن النبي كان معه رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكنته عليه فلم يخف ولم يحزن) وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفا يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته.

ووصفت في كلام عائشة وصفا فيه شيء من الزخرف والخيال: إذ أضافت حديث الحمامين والعنكبوت - ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان - فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي الحادثة وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال:

فالصدق في الغار والصديق لم يرما	وهم يقولون ما في الغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على	خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة	من الدروع وعن عال من الأطم

وهذا الوصف لم يخرج عما في القرآن من وقاية الله لنيبه وإنزاله السكينة عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.

أما شوقي فقد قال:

سل عصبة الشرك حول الغار حائمة	لولا مطاردة المختار لم تحم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا	همس التساييح والقرآن من أمم ^(١)
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم	كالغاب والحائثات الزغب كالرخم

(١) أي لا أثر فيه.

(٢) من قرب.

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم
 لولا يد الله بالجارين ما سلما وعينه حول ركن الدين لم يقم
 تواريخا بجناح الله واستترا ومن يضم جناح الله لا يضم

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويمزأ بهم ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلا بشعا مخيفا يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود، وللقارئ أن يتأمل قوله:

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم

فإنه من أجمل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول، أما البارودي فقد قال:

وجاءه السوحي إيذانا بهجرته فيم الغار بالصديق في الغسم^(١)
 فما استقر به حتى تبوأه من الحائم زوج بارع الرنم
 بنى به عشه واحتله سكننا يأوي إليه غداة الريح والرهيم
 ألفان ما جمع المقدار بينهما إلا لسر بصدر الغفار مكتنم
 كلاهما ديدبان فوق مربأة يرعى المسالك من بعد ولم ينم
 إن حن هذا غراما أو دعا طريا باسم الهديل أجابت تلك بالنغم
 يخالها من يراها وهي جائمة في وكرها كرة ملساء من آدم^(٢)
 إن رفرفت سكنت ظلا وإن هبطت روت غليل الصدى من حائر شبم
 مرقومة الجيد من مسك وغالبة مخضوية الساق والكفين بالعنم
 كأنها شرعت في قانئ سرب من أدمعي فغدت محمرة القدم

(١) في الظلام.

(٢) من جلد.

بخيمة حاكها من أبداع الخبم
 بالأرض لكنها قامت بلا دعم
 بأرض سابور في بجوحة العجم
 فصار يحكي خفاء وجه ملتئم
 يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم
 كالدر في البحر أو كالشمس في النسم
 أكباد قوم بنار اليأس والوغم
 من عنده السر من خل ومن حشم
 يوم طيبة مأوى كل معتصم

وسجف العنكبوت الغار مخفيا
 قد شد أطرافها فاستحكمت ورست
 كأنها سابري حاكه لبق
 وارت فم الغار عن عين تلم به
 فياله من ستار دونه قمر
 فظل فيه رسول الله معتكفا
 حتى إذ سكن الأرجاف واحترقت
 أوح الرسول بإعداد الرحيل إلى
 وسار بعد ثلاث من مباءته

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه، وتكلم عن حراسة الحمامتين ورعايتهما للمسالك البعيدة وهجرهما النوم وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخصوبة الساق والكفين، وكيف كانت مرقومة الجيد وكيف كانت محمرة القدم كأنها شرعت في دموعه الجمرء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحسبها الرائي حله صابرية إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع واستسلام إلى الخيال وكذلك كان يفعل الأقدمون.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب لأنه ساير الحوادث وفقا لما قصه ابن هشام ولا كذلك شوقي والبوصيري فقد أطاعا الخواطر الطارئة وقدموا بعض الحوادث على بعض وتكلما عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكر الميلاد.

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت بابا لفقد الشعر في أكثر القصيدة فأصبحت بذلك منظومة كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجا يرى فيه غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وأطوي المنازل بالوخادة الرسم	وأم طيبة مسرورا بعودته
إلى حماة فلاقته وأفر الكرم	ثم استهلت وفود الناس قاطبة
عصابة أقبلت أخرى على قدم	فكان عام وفود كلما انصرفت
فيه بلاغ لأهل الذكر والفهم	وأرسل الرسل تترى للملوك بما
بني الملوح فاستولى على النعم	وأم غالب أكناف الكديد إلى
زيد بجمع لرهط الشرك مقتثم	وحين خانت جذام فل شوكتها
بني فزارة أصل اللؤم والقزم	وسار متمحيا وادي القرى فمحا
إلى اليسير فأرداه بلا أتم	وأم خيبر عبد الله في نفر
طغيا ابن ثور فأصماه ولم يخم	ويمم ابن أنيس عرض نخلة إذ
على بني العنبر الطراز والشجم	ثم استقل ابن حصن فاحتوت يده
جمع هام لجيش الشرك مصطلم	وسار عمرو إلى ذات السلاسل في

وغزوتان لعبد الله واحدة إلى رفاة والأخرى إلى أضمر

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحيانا إلى الغموض ولا يرجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه وانظر كيف يقول وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد:

إني وإن ————— بال بي...
 لثابت... لم يجلل قوى أملي
 ضميم أشاط على جهر النوى أدمي
 لم ينزل الدهر في ما أستعين به
 يأس ولم تخط بي في سلوة قدمي
 هذا يحبر مدحي في الرسول وذا
 على التجميل إلا ساعدي وفمي
 يتلو على الناس ما أزجيه من كلمي

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمنية دفتها الحوادث في صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد إلى القصص من جديد ولعل أغرب ما وقع له من النظم اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول:

فهاكها يا رسول الله زاهرة
 وسمتها باسمك العالي فألبسها
 تهدي إلى النفس ربا الآس والبرم
 ثوبا من الفخر لا يبلى على القدم
 بنظرة منك لاستغنت عن النسم
 إذ كان صوغ المعاني الغر ملتزمي
 نيل المنى يوم تحيا بذة الرمم
 أحسن بمنتشر فيها ومنتظم
 عن عفة لم يشنها قول متهم
 في القول مسلك أقوام ذوي قدم
 صدرته بنسيب شف باطنه
 لم أتخذة جزافا بل سلكت به

تابعك كعبا وحسانا ولي بهما
والشعر معرض ألباب يروج به
فلا يلمني على التشبيب ذو عنت
في القول أسوة بر غير متهم
ما نمقته يد الآداب والحكم
فلبلس الروض مطبوع على النغم

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند مناجاة الوجدان.

سميك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة - البوصيري والبارودي وشوقي - في التسمي باسم النبي عليه الصلاة والسلام وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد البوصيري يقول:

أن آت ذنبا فما عهدي بمنتقض
فلإن لي ذمة منه بتسميتي
من النبي ولا حبلى بمنصرم
عمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

ونجد شوقي يقول:

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي
وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ونجد البارودي يقول:

خدمته بمدحى فاعتليت على
وكيف أرهب ضيما بعد خدمته
هام السناك وصار السعد من خدمي
أم كيفي يخذلني من بعد تسميتي
وخادم السادة الأجواد لم يضم
باسم له في سماء العرش محترم

والبوصيري هو صاحب الفكرة وقد تبعه البارودي، ولحقها شوقي وتلك
مسألة فيها نظر كما يقولون!

obeyikandali.com

التخلص والاعتضاب في شعر البوصيري وشوقي والبارودي

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الاعتضاب ويكثر التخلص في شعر المحدثين كما يكثر الاعتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق: وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر:

وكفكفت مني عبرة فرددتها إلى النحر منها مستهل ودامع
على حين عابت المشيب على وقلت ألما أصح والشيب وازع
ثم تخلص إلى الاعتذار فقال:

ولكن همادون ذلك شاغل مكان الشغاف تبتغيه الأصابع^(١)
وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال:

فبت كأني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
يسهد في ليل التمام سليمها^(٢) حلبي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طورا وطورا تراجع

(١) الشغاف: هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كاللحجاب.

(٢) السليم: هو الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلا بسلامته كما قيل في الصحراء مفازة.

فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه فقال:

أتاني آيت اللعن^(١) (أنك) لمتني وتلك التي تستك منها المسامح

ثم اطرده ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة.

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ثم يرجع إلى المدح كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي تمادي فيه منقطعاً وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة:

وظلمتكم ظالمة البريء ظلوم	والظلم من ذي قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت	منها طول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى	أجل وأن أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت	نفسي على ألف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك:

لمحمد بن الهيثم بن شبابة محمد إلى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الإمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح بل يقولون عند فراغهم في نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله: دع ذا، وعد عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام

(١) تحية جاهلية عاشت حيناً ثم ماتت وكانت في الأغلب مما يخاطب به الملوك، ولو خاطبت بها اليوم أحداً من ملوك عصرك لاتهموك بقله الذوق.

الذي يقصدونه فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح، متصلا بما قبله، ولا منفصلا بقوله: (دع ذا) و(عد عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرا وانقطاعا، وكان البحري كثيرا ما يأتي به نحو قوله:

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجاء موكل
إن الرعية لم تنزل في سيرة عمرية منذ ساسها المتوكل

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقضاب.

أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاورة العذول:

إني اتهمت نصيح الشيب في عذل	والشيب أبعد في نصيح عن التهم
فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت	من جهلها بنذير الشيب والمهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى	ضيف ألم برأسي غير محتشم
لو كنت أعلم أي ما أوقره	كتمت سرا بدائي منه بالكتم
من لي ببرد جهاج من غوايتها	كما يبرد جهاج الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوي شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على	حب الرضاع وإن تفظمه ينظم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه	إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة	وإن هي استحلقت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة	من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع	فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت	من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما	وإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا تطع منهما خصما ولا حكما
 أستغفر الله من قول بلا عمل
 أمرتك الخير لكن ما اثمرت به
 وما استقمتم فما قولي لك استقم
 ولا تزودت قبل الموت نافلة
 ولم أصل سوى فرض ولم أصم
 ظلمت سنة من أحياء الظلام إلى
 أن اشتكت قدماء الضر من ورم

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فإننا نغفر له هذه الإطالة، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية وهو الدعوة إلى تهذيب النفس وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في هزيمته فيقول:

كيف ترقى رقيق الأنبياء
 يا سماء ما طاولتها سماء
 لم يساووك في علاك وقد حا
 ل سنا منك دونهم وسناء
 إنما مثلوا صفاتك للناس
 س كما مثل النجوم الماء

وكانها جاراه شوقي في افتتاح همزيته فقال:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
 وفم الزمان تبسم وثناء
 الروح والملائك حوله
 للدين والدنيا به بشراء
 والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
 والمتهى والسدرة العصماء

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري؟؟ إن الفرق بينهما لبعيد..
وإن كان في تعبير البوصيري شيء من الجفاء في حق الأنبياء.

وأعود فأذكر أني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس:

واخش الدسائس من جوع ومن فرب مخمصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة: فإن النفس يضر بها
الزهد كما يطغيها الترف كالجسم ترديه المسغبة كما تضره البطنة.

وأستجيد كذلك قوله:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولي لك استقم

وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورققه وخلوص دعوته من
شوائب الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضا حسن التخلص إذ قال:

ليت القطا حين سارت غدوة حملت عني رسائل أشواقي إلى أضمر
مرت علينا خصا وهي قاربة مر العواصف لا تلوي على أرم
لا تدرك العين منها حين تلمحها إلا مثالا كلمح البرق في الظلم
كأنها أحرف برقية نبضت بالسلك فانتشرت في السهل والعلم
لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت بنانتي في مديح المصطفى قلبي

وهذا تخلص مستملح مقبول، ومضى الشاعر في وصف القطاة إيثار
للأسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا

الأسلوب جزء من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين ومن سايرهم من المحدثين وبيان ذلك أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفا يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعا من الاستقلال وتكون لهذا الوصف قيمة أي قيمة حين يراد تأكيد معنى من المعاني المقصودة ومن أمثلة ذلك قول أبي صعترة اليولاني:

فما نطفة من حب مزن تقاذفت به جنبنا الجودي والليل دامس^(١)
فلما أقرته اللصاب تنفست شمال بأعلى مائه فهو قارس^(٢)
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ولكنني فيما ترى العين فارس

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضا خاصا هو الإشادة بعدوبة ذلك الثغر الشهى المذاق، ويماثل هذا قول عاتكة المرية، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب: عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها:

ومما طعم ماء أي ماء تقوله تحدر عن غر طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه فما أن به عيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب

فإن لها من وصف الماء في عدوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضا خاصا هو الإشادة بجمال الحياء وطيب العفاف.

(١) الجودي: الجبل.

(٢) اللصاب: الشعب الصغيرة في الجبل.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد:

وما وجد أعرابية قذفت بها
 تمنى أحاليب الرعاء وخيمة
 إذا ذكرت ماء العضاه وطيبه
 بأوجد من وجد برياً وجدته
 فإن يك هذا عهد ربا وأهلها
 صروف النوى من حيث لم تك ظنت
 بنجد فلم يقدر لها ما تمنى
 ويرد الحصى من نحو نجد أرنت
 غداة غدونا غدوة واطمأنت
 فهذا الذي كنا ظننا وظنت

وأروع من هذا قول الأبيوردي^(١):

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى
 تراعي بإحدى مقلتيها كناسها
 فلاح لها من جانب الرمل مرتع
 فمالت إليه والحريص إذا غدت
 وآنسها المرعى الخصب فصادفت
 فلما قضت منه اللبانة راجعت
 أتيج له عاري السواعد لم يزل
 فولت على ذعروها بالنفس ما بها
 بأوجد مني يوم عجت ركاياها
 على عذبات الجزع تحسبه قلبا
 وترمي بأخرى نحوه نظرا غربا
 كأن الريع الطلق ألبسه عصبا
 به سورة الأطماع لم يحمد العقبى
 مدى العين في أرجائه بلدا خصبا
 طلاها فألفتته قضى بعدها نجبا
 يخوض إلى أوطاره مطلباً صعبا
 من الكرب لا لقيت في حادث كربا
 لبين فلم تترك لذي صبوة لبا

(١) تمجد تفصيل هذه المعاني في كتاب (مذامع العشاق) عند الكلام عن (الطبيعة في أنفوس الشعراء).

وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يغتال
رشأها الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزاة المروعة
الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس وأملك للقلب وأروع للوجدان.

ولنتقل بعد ذلك إلى شوقي وأنا لنراه صدف عن التخلص وآثر
الاقتراب، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضرر
الدنيا من المبكيات، وما تجن من ظلمات الخطوب وتدرج من هذا إلى الحديث
عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق وكذلك يقول:

يا نفس دنياء تخفي كل مبكية	وإن بدالك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاما كلما ضحكت	كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة	من أول الدهر لم ترمل ولم تئم
يفنى الزمان ويبقى من إساءتها	جرح بآدم يبكي منه في الأدم
لا تحفلي بجناها أو جنائتها	الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
كم نائم لا يراها وهي ساهرة	لولا الأماني والأحلام لم ينم
طورا تمدك في نعمى وعافية	وتارة في قرار البؤس والوصم
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته	إن يلحق صابا يرد أو علقما يسم
يا ويلتاه لنفسي راعها ودها	مسودة الصحف في مبيضة اللمم
ركضتها في مريع المعصيات وما	أخذت من حمية الطاعات للتخم
هامت على أثر اللذات تطلبها	والنفس إن يدعها داعي الصبا تهم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه	فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية	والنفس من شرها في مرتع وخم
تطفى إذا مكنت من لذة وهوى	طغي الجياد إذا عضت على الشكم

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل
ألقي رجائي إذا عز المجير على
إذا خفضت جناح الذل أسأله
وإن تقدم ذو تقوى بصالحه
لزمت باب أمير الأنبياء ومن
في الله يجعلني في خير معتصم
مفرج الكرب في الدارين والغمم
عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
قدمت بين يديه عبرة الندم
يمسك بمفتاح جبل الله يغتنم

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري
وأن قول شوقي:

لا تحفلي بجناها أو جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لأشرف معنى وأسمى خيالا من قول البوصيري:

واخش الدسائس من جوع ومن
فرب مخمصة شر من التخم

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين فلما وصل إلى
نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض، وأنه يأسى على أن لم يتزود نافلة
قبل الموت وأنه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتى تورمت قدماه ومن هنا لم
تكن الفرصة سانحة ليذرف شوقي من الدمع وأين شوقي من البوصيري؟ لقد
كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من
رجال البلاط وكان يحسن أن يقول:

رمضان ولي هاتها ياساقي
مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ويرمي بذلك الندم
الموجع الذي يذيب لفائف القلوب وانظر كيف يقول:

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

وكان شوقي أوفر الناس إحساسا بخطر ذنبه وكرم ربه حين قال:

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}.

المعجزات

لنا في المعجزات رأي خاص، لا يسمح به ظرف الزمان، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرضاً لما يحيط بها من الحقائق والفروض وقد يثير هذا فتنة نحن عنها أغنياء^(١)، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري وشوقي والبارودي من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية تنفر منها القلوب، وتأبأها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء: {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}.

(١) ومع ذلك سمح الزمان وأبدينا بعض الآراء بصراحة في كتاب (المدائح النبوية) حين حللنا بردة البوصيري، وحين نقدنا قصة المولد النبوي، وقد بدأ الناس يفهمون أن الإسلام في غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل.

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئاً وأن الأمر كله لله وأن في القرآن هدى وتبصرة لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة العنكبوت: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين} * أو لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} معنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري:

آيات حق من الرحمن محدثة	قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم يقترن بزمان وهي تخبرنا	عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا فقامت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم

وتبعه شوقي فقال:

جاء النبيون بالآيات فانصرفت	وجئنا بحكيم غير منصرف
آياته كلما طال المدى جدد	يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظه منه مشرفة	يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص ويليه البوصيري، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار وسعيها إلى الرسول فقال البوصيري:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة	تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنها سطرت سطرًا لما كتبت	فروعها من بديع الخط باللمم

وقال البارودي:

أتلک أم حین نادى سرحة فأتت
حنث علیه حنو الأم من شفق
جاءته طوعا وعادات حین قال لها
إليه منشور الأغصان كالجمم
ورفرفت فوق ذاك الحسن من
عودي ولو خلّيت للشوق لم ترم

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام فقال:

فینما هو یرعى البهم طاف به
فأضجعه وشقا صدره یرید
وبعد ما قضيا من قلبه وطرا
ما عاجل قلبه إلا لیخلص من
فیالها نعمة لله خص بها
شخصان من ملکوت الله ذی العظم
رفیقة لم یبت منها علی ألم
تولیا غسله بالسلسل الشیم
شوب الهوى وبعی قدسیة الحکم
حییبه وهو طفل غیر محتم

وشق الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه السلسيل ليس من المعجزات لأن المعجزة تكون للإقناع وهو لم يدع إلى ربه في طفولته حتى يكون للإقناع مجال.. وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس، والله يختص برحمته من يشاء، وقد مر البارودي بهذه السطور مر الطيف فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال، فقد صور النبي فيها صورة رائعة وتمثل فيها لطف الله به وإحسانه إليه وتكريمه إياه، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ ليرى كيف ابتداء القصص في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(وكنت مسترضعا في بني سعد بن بكر فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت برهرة من الذهب ملآن ثلجا، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق أصحابي هرابا حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا: ما أربكم من هذا الغلام فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش وهو مسترضع فينا، غلام يتيم ليس له أب، فما يرد عليكم قلته، وماذا تصيبون من ذلك؟ فإن كنتم لا بد قاتليه فاختروا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحIRON جوابا انطلقوا مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، قال: فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض إضجاعا رفيقا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مساء، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه: تنح عنه فنحاه عني ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثم أمر يده يمنة منه، وكأنه يتناول شيئا فإذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلا نورا، وذلك نور النبوة والحكمة. ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرا، ثم قال الثالث: تنح عنه فنحاه عني فأمر يده على مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضا لطيفا. ثم قال الأول الذي شق بطني: زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال: دعه فوالله لو وزنته بأمته لرجحهم. قال: ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين

عيني ثم قالوا: لا ترع فإنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت به عينك قال:
فبينما نحن كذلك إذ أقبل الحي بحذافيرهم فإذا ظئري أمام الحي تهتف بأعلى
صوتها وتقول: واضعيفاه فانكبوا علي وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما
بين عيني -يعني الملائكة- وقالوا: حبذا أنت من وحيد، وما أنت بوحيد، إن
الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ثم قالت ظئري: وايتيها
استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك قال: فانكبوا علي وضموني إلى
صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني -يعني الملائكة- وقالوا: حبذا أنت من
يتيم ما أكرمك على الله، لو تعلم ما يراد بك من الخير لقرت به عينك. فوصل
الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرتني أمي -وهي ظئري- قالت: لا أراك إلا حيا
بعد، فجاءت ثم انكبت علي ثم ضمتني إلى صدرها فوالذي نفسي بيدي إني
لفي حجرها قد ضمتني إليها وإن يدي لفي يد بعض الملائكة وجعل القوم لا
يرونهم قال: فقال بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائف من الجن
فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: يا هذا ما بي شيء مما
تذكرون إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح.. ليست لي فلتة فقال أبي -وهو زوج
ظئري: ألا ترون كلامه كلام فصيح؟ إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس فاتفقوا
على أن يذهبوا بي إلى الكاهن فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتي فقال: اسكتوا
حتى أسمع من الغلام فإنه هو أعلم بأمره منكم فسألني فقصت عليه القصة
وأمرني من أوله إلى آخره فوثب إلي وضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته: يا
للعرب اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه.. فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك
ليبدلن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم وليخالفن أمركم وليأتينكم
بدين لم تسمعوا بمثله، قال: فعمدت ظئري إليه فانتزعتني من حجره وقالت:

لأنت أعته وأجن ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به فاطلب لنفسك من يقتلك، فإننا غير قاتلي هذا الغلام، ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت مفزعا مما فعل بي وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عاتي كأنه الشراك^(١).

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارئ من نقده وتمييزه ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فترينا فيه عبارته إذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث فإن طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوع وذلك قوله: (روى شداد بن أوس قال: بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدره قومه، يتوكأ على عصاه فمثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده، فقال: يا بن عبد المطلب إني أنبت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وأن الله تعالى أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء ألا وإنك تفوهت بعظيم.. إنها كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل. وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان فما لك والنبوة لكن لكل حق حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدو شأنك قال: فأعجب النبي بمسألته، ثم قال: يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيما ومجلسا كريما... إلخ).

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء.

فإن القارئ يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة: (إني أنبت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس) فإن كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن يزعم أنه رسول وعبرة فأنبئني بحقيقة قولك وبدو شأنك، عبارة مولدة لا ريب في ذلك وما أظن النبي يقول: (إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيما ومجلسا كريما) فإن هذا أيضا من تعابير المولدين ولكل عصر أسلوب.

أكتفي بهذا في نقد هذه الأقصوصة وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها إلى محكمة التعديل والتجريح وانتقل إلى ما ذكروه من العجائب عند ميلاد الرسول، كانصداع إيوان كسرى وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة وما إلى ذلك من خوارق العادات..

قال البوصيري في البردة:

أبان مولده عن طيب عنصره	يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف	عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها	ورد واردةا بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلبل	حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة	والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم	تسمع وبارقة الإنذار لم تشم
من بعد ما أخبر الأquam كاهنهم	بأن دينهم المعوج لم يقم

ويعد ما عاينوا في الأفق من شهب
حتى غدا عن طريق الحق منهزم
منقضة وفق ما في الأرض من صنم
من الشياطين يقفوا إثر منهزم

وقال في الهمزية:

وتداعى إيوان كسرى ولولا
وغدا كل بيت نار وفيه
ن لئيرانهم بها إطفاء
وعيون الفرس غارت فهل كما

ويقول شوقي في نهج البردة:

وخل كسرى وإيوانا يدل به
هوى على أثر النيران والأيم

ويقول في الهمزية:

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
والنار خاوية الجوانب حولهم
وعلت على تيجانهم أصداء
والآي تترى والخوارق جمّة

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد أثر الحيلة وهو يتكلم عن هذه الموضوعات فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية.

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات وأن شوقي أبعد نظرا من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة

ساوة وانقضاض الشهب على الأصنام: كل هذه الحوادث فيها نظر وكلها في حاجة إلى تمحيص ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

obeyikandali.com

وصف القرآن

لم يعن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي أما
البوصيري فقد قال:

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدريزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السذاجة وعبارة (دعني ووصفي آيات له
ظهرت) عبارة عامية وقوله:

فالدريزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم

غير واضح المدلول لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة
القرآن، لأنه لا يهم بنظم القرآن ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن. إذ لم
تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت
للشاعر وعز عليه أن تضع، فقيدتها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل، أما
قوله:

فما تطاول آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

فهو بيت يمدح به شخص ولا يقرظ به كتاب وقد كان الشاعر يرمي إلى
وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق ولكنه لم يوفق إلى
حسن الأداء.

وقوله بعد ذلك:

آيات حق من الرحمن محدثة
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا
قديمة صفة الموصوف بالقدم
عن المعاد وعن عاد وعن إرم

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى لأن أخبار القرآن عن عاد وعن إرم ليس حجة إلا عند المسلمين أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار بعد أمن اللبس والتزوير.

أما قوله:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة
من النيسين إذ جاءت ولم تدم

فهو بيت القصيد إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية وكان هو المرجع حين يجد الخلاف، وهو أيضا المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ويصبح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين أما نبع الماء من بين يدي الرسول وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له وما إلى ذلك من المعجزات فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة وهي مخشية الضر قبل أن تكون مرجوة النفع ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله:

ما حوريت قط إلا عاد من حرب
ردت بلاغتها دعوى معارضها
أعدى الأعداء إليها ملقي السلم
رد الغيور يد الجاني عن الحرم

كلمة صدق ويكفي أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتاب خطر رهيب يحمل عدوه على الإيمان به والخشوع لديه، ولو صحت - لا صحت - أراجيف الملحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}.

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز:

لها معان كموج البحر في مدد	وفوق جوهرة في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها	ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له	لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى	أطفأت نار لظى من وردها الشبم
لا تعجبين لحسود راح ينكرها	نجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من	وينكر الفم طعم الماء من سقم

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال وهو غاية في تقرير المكابرين.

أما شوقي فقد قال:

جاء النيون بالآيات فانصرفت	وجئنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد	يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة	يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود أن لا يكتفي شوقي في وصف القرآن بهذه الأبيات. وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال:

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة
 حليت من عطل جيد البيان به
 بكل قول كريم أنت قائله
 وقول شوقي:

يزينهن جلال العتق والقدم
 آياته كلما طال المدى جدد
 أروع من قول البوصيري:
 فما تعد ولا تحصى عجائبها
 وقول البوصيري:

أطفأت نار لظي من وردها الشبم
 إن تتلها خيفة من حر نار لظي
 فيه ضعف لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله وهو تهذيب
 النفوس وتثقيف العقول إلى غرض ضئيل هو اتخاذ وردا من أوراد الصباح أو
 المساء كما فعل المتأخرون.
 وقوله:

حليت من عطل جيد البيان به
 في كل منشر في حسن منتظم

غير جيد المعنى وهو لا يزيد عن قول بعض الناس (أما القرآن فهو زينة البيان وقلائد العقيان) وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من الشمول وجودة الوصف لا تتم إلا بتحديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عني العرب كثيرا بوصف الحرب فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة والتمدح بآثار المجاهدين وهذا كتاب (الحماسة) شاهد عدل على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمنا غير قليل، فقد اختار أبو تمام قطعا قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق وفعل مثل ذلك في الفكاهات والملح والنسيب ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمديح. وهي الفنون التي تترجم النفس العربية وتكشف عما فيها من مطوي النوازع ومكنون الميول وكذلك مهدت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك وما اقتحم من الحروب وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملية ولم يميز بعض الغزوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال فوصفه للحرب وصف فضفاض يصلح لبوسا لكل موصوف. وانظر كيف يقول:

راعت قلوب العدا أنباء بعثته	كناية أجفلت غفلا من الغنم
ما زال يلقيهم في كل معترك	حتى حكوا بالقنا لحما على وضم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به	أشلاء شالت مع العقبان والرحم

ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم
بكل قرم إلى لحم العدا قرم
يرمي بموج من الأبطال ملتطم
يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
من بعد غربتها موصولة الرحم

تمضي الليالي ولا يدرون عدتها
كأنها الدين ضيف حل ساحتهم
يجر بحر خميس فوق سابحة
من كل متدب لله محتسب
حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم

وإنه ليحسن أن نسجل إعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من أصحاب
الرسول:

ماذا رأى منهمو في كل مصطلم
فصول حتف لهم أدهى من الوخم
من العدا كل مسود من اللمم
أقلامهم حرف جسم غير منعجم
والورد يمتاز باليسيا من السلم
فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
وسل حيننا وسل بدرا وسل أحدا
المصدري البيض همرا بعدما وردت
والكاتين بسمر الخط ما تركت
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم
تهدي إليك رياح النضر نشرهمو

وقد يستضعف قوله:

من شدة الحزم لا من شدة الحزم
فما تفرق بين البهم والبهم

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا
طارت قلوب العدا من بأسهم

أما البارودي - جعل الله له لسان صدق في الآخرين - فقد وصف الحرب
وصفا حيا صارخا يبعث ميت العزم ويشير مدفون الصيال، وما ظنك بجندي
سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح الشوامخ ليلغوا أسباب

السموات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلال أجمل من الهدى وغي أهدي
من الرشاد.

ولننظر كيف يقول:

قام النبي لنصر الحق معتما
تبدو به البيض والقسطال منتشر
لمع السيوف وتصهال الخيول به
عرمرم ينسف الأرض الفضاء إذا
فيه الكفاة التي ذلت لعزتها
من كل معتزم بالصبر محتزم
طالت بهم هم نالوا السماك بها
بيض أساوره غلب قساورة
طابت نفوسهم بالموت إذ علموا
ساسوا الجياد فظلت في أعتها
تكاد تفقه لحن القول من أدب
كأن أذناهما في الكسر ألوية
من كل منجرد يهوي بصاحبه
والبيض ترجف في الأغمام من ظمأ
من كل مطرد لولا علاقته
كأنه أرقم في رأسه حمة
فلم يزل سائرا حتى أناف على
ولفهم بخميس لو يشد على

بجحفل لجموع الشرك مخترم
كالشهب في الليل أو كالنار في الفحم
كالبرق والرعد في مغدودق هزم
سرى بها ويدك الهضب من خيم
معاطس لم تزل قبل بالخطم
للقرن ملتزم في البأس مهتزم
عن قدرة وعلو النفس بالهم
شكس لدى الحرب مطعلمون في الأزم
أن الحياة التي يبغون في العدم
طوع البنانة في كرم ومقتحم
وتسبق الوحي والإيحاء من فهم
على سفين لأمر الريح مرتسم
بين العجاج هوي الأجدل اللحم
والسمر ترعد في الأيمان من قرم
لسابق الموت نحو القرن من ضرم
يستل كيد الأعادي بابنة الرقم
أرباض مكة بالفرسان واليهم
أركان رضوى لأضحى مائل الدعم

فأقبلوا يسألون الصفح حين رأوا
 ريعوا فذلوا ولو طاشوا لوقرهم
 أن اللجاجة مدعاة إلى الندم
 ضرب يفرق منهم مجمع اللمم

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال وإنك لتعجب حين ترى البارودي يفتن في تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوة غزوة وانظر كيف يقول مثلاً في يوم بدر:

يوم تبسم فيه السدين وانهملت
 أبلى علي به خير البلاء بما
 وجال حمزة بالصمصام يكسوهم
 وغادر الصحب والأنصار جمعهمو
 تقسمتهم يد الهيجاء عادلة
 كأنها البيض بالأيدي صوالجة
 لم يبق منهم كسي غير منجدل
 فما مضت ساعة والحرب مسعرة
 قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة
 فأين ما كان من زهو ومن صلف
 جاءوا وللشر وسم في معاطسهم
 من عارض الحق لم تسلم مقاتله
 على الضلال عيون الشرك بالسجم
 حياه ذو العرش من بأس ومن همم
 كسأ يفرق منهم كل مزدحم
 وليس فيه كمي غير منهزم
 فاهسام للبيض والأبدان للرخم
 يلعبن في ساحة الهيجاء بالقمم
 على الرغام وعضو غير منحطم
 حتى غدا جمعهم نهباً لقتسم
 بالمشرفية والمران كالرجم
 وأين ما كان من فخر ومن شمم
 فأرغموا والردى في هذه السيم
 ومن تعرض للأخطار لم ينم

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفا رقيقا لا يلائم ما تقضي به الحرب من غلبة الغضب وشمول العبوس ولننظر كيف يقول:

البدر دونك في حسن وفي شرف
 والبحر دونك في خير وفي كرم

والأنجم الزهر ما أو سمتها تسم
 إذا مشيت إلى شاكى السلاح كمي
 في الحرب أفتدة الأبطال والسبهم
 على ابن آمنة في كل مصطدم
 يضيء ملتئماً أو غير ملتئم
 كغرة النصر تجلو داجي الظلم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت
 والليث دونك بأسا عند وثبته
 تهفو إليك وإن أدميت جبتها
 محبة الله ألقاها وهيبته
 كأن وجهك تحت النقع بدر دجى
 بدر تطلع في بسدر فغرتة

وهذا شعر جميل لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم يقارعون
 الهول في ميدان الجلال، ويعجبني قوله في وصف الغزاة:

ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم
 لله مستقتل في الله معتزم
 شوقا على سايح كالبرق مضطرم
 بعزمه في رحال الدهر لم يرم
 من أسيف الله لا الهنديه الخزم
 من مات بالعهد أو من مات بالقسم
 تفاوت الناس في الأقدار والقيم

مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها
 على لوائك منهم كل منتقم
 مسيح للقناء الله مضطرم
 لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى
 بيض مفاليل من فعل الحروب بهم
 كم في التراب إذا فتشت عن رجل
 لنولا مواهب في بعض الأنام لما

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي
 إشارة خفيفة حين قال:

للصلح والحرب مرقاة إلى السلم

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد وأفصح عنها إفصاحاً يرضي المنصف
ويكبح جهل المعاند الكنود، ولننظر كيف يقول:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذي حسب	تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية فقد كانت دين سلام
وإخاء ولكنها لم تقم إلا بالسيف وفي هذا يقول:

سل المسيحية الغراء كم شربت	بالصبا من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها	في كل حين قتالا ساطع الخدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها	بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد فقال:

علمتهم كل شيء يجهلون به	حتى القتال وما فيه من الذم
لولا لم نر للدولت في زمن	ما طال من عمد أوقر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة	في الأعصر الغرلا في الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سرر	لولا القذائف لم تسلم ولم تصم

المدنية الإسلامية

وقد انفرد شوقي بالإفصاح عن جلال المدنية الإسلامية.. وتقديمها على
مدنية المصريين واليونان والرومان وفي ذلك يقول:

دع عنك روما وآتينا وما حوتنا
 وخل كسرى وإيوانا يدل به
 واترك رعمسيس أن الملك مظهره
 دار الشرائع روما كلما ذكرت
 ما ضارعتها بياننا عند ملتأم
 ولا احتوت في طراز من قياصرها
 من الذين إذا سارت كتابهم
 ويجلسون إلى علم ومعرفة
 يطأطي العلماء الهام إن نسوا
 كل اليواقيت في بغداد والتوم
 هوى على أثر النيران والأيم
 في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
 دار السلام لها ألفت يد السلم
 ولا حكتها قضاء عند مختصم
 على رشيد ومأمون ومعتصم
 تصرفوا بحدود الأرض والتخم
 فلا يدانون في عقل ولا فهم
 من هيئة العلم لا من هيئة الحكم

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الإسلام وما كان لهم من الأثر في
 حياة الدين، ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله:

واترك رعمسيس أن الملك مظهره
 في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

فإنه من فرائد الأمثال.. ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري
 سبها في المدائح النبوية سموا لم يوفق إلى معشاره في سائر شعره وهذا أثر لصدق
 العاطفة بخلاف صاحبيه فإن شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما
 من الشعر البليغ وصدق شوقي حين قال:

المادحون وأرباب الهوى تبع
 لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
 مديحه فيك حب خالص وهوى
 وصادق الحب يملي صادق الكلم

بين شوقي وابن زيدون

نحن مقبلون في هذا البحث على واد ظليل من أودية البيان^(١): مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية ومراجعة قصيدتين شغلت إحداهما الناس تسعة قرون وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقتة الدسائس في الحب والملك ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون فالدسائس من ألوان الشر الوضيع ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تسطع من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد فالرجل حين يرحم تنفجر عبقريته وسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدنيوية والمجد الأدبي متاع ليس بالقليل، وهو جدير بأن يوضع في الميزان ولا يغض من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف ويعرف الناس من أن العبقرين لا يحسون أثر هذا العوض ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا.

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٣٤٠.

لا يغض من قيمة تلك الغنيمة، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنسا
مكنونا بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته ببلتين لا يتلى
بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعلقم والنعيم
والجحيم.

أما البلية الأولى فهي الحب، وأما البلية الثانية فهي المجد وبين الحب
والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمننا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير، وإنما يهمننا أن
نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد،
كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب أما الحب فنفحة روحانية لا يعبق
طبيها إلا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجر العبقرية في صدر ابن زيدون ولكن أي حب؟ لقد
كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية ينفها الله إلى من يشاء، وهو خليق بأن يصنع ما يصنع،
فيعز ويذل ويرفع ويضع ويكرم ويهين، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب،
إنما يسيطر ويستطيل حين يجد رفيقا، من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل
ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تمنح الجمال والذكاء

تحارب بسيفين مرهفين، وتحول الدنيا إلى مآتم وأفراح، الشاعر الذي يجب
امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوقود الذي يقدم إلى النار، ومن قلب
العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التي
ملكته قلبه واستأثرت بنهاه:

إذا كتاب يسوافيني فيحيني
أن الفسؤاد بلقىاهم يرجيني
إلا اعتياد أسى في القلب مسجون
بالقرب يوما يداويني فيشفيني
قلبي وهما نحن في أعقاب تشرين
شمس النهار وأنفاس الرياحين
قد بات منه يسقيني فيرويني
فكم أراه يغنيني فيشجيني
عهدته وهو يدنيني فيسليني
حللت عن خصره عقد الثمانين
كواكبها في ليالي بعده الجون
وإنما الدهر بالمكروه يرميني
إذا تبدلت دين الكفر من ديني
درا لكان بالنفس والأهلين يفديني

هل راكب ذاهب عنهم يحيني
قدمت إلا ذمء في يمسكه
ما سرح الدمع من عيني أطلقه
صبرا لعل الذي بالبعد أمرضني
كيف اصطباري وفي كانون فارقتني
شخص يذكرني فاه وغرته
لئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم
وإن أفاض دموعي نوح باكية
وإن بعدت وأضتني الهموم لقد
أو حل عقد عزائي نأيه فلكم
يا حسن إشراق ساعات الدنوبدت
والله ما فارقتني باختيارهم
وما تبدلت حبا غير حبههم
أفدي الحبيب الذي لو كان مقتد

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولادة بنت المستكفي التي يقول فيها

ابن خاقان:

كانت من الأدب والظرف وتتيم المسمع والظرف بحيث تختلس القلوب
والألباب وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب).

كانت ولادة فاتنة الجمال وكانت أدبية تنظم الشعر البارع وتذك أسرار
الكلام البليغ والشاعر الذي يهوى فتاة أدبية ينعم مرتين، ينعم بالحلب وينعم
بالشعر والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب أنه يوجه أنغامه إلى أذن
تسمع وقلب يذوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلك الأدبية الحسنة:

والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا	إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
كأنه رق لي فاعتل إشفاقا	وللنسيم اعتلال في أصائله
كما شققت عن اللبات أطواقا	والروض عن مائه القضي مبتسم
بتنا لها حين نام الدهر سراقا	يوم كأيام لذات لنا انصرفت
الندي فيه حتى مال أعناقا	تلهو بما يستميل العين من زهر جال
بكت لما بي فجال الدمع رقراقا	كأن أعينه إذ عاينت أرقى
فازداد منه الضحى في العين إشراقا	ورد تآلق في ضاحي منابته
وسنان نبه منه الصبح أحداقا	سرى ينافحه نيلوفر عبق
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا	كل ييج لنا ذكرى تشوفنا
فلم يطرب بجناح الشوق خفاقا	لا سكن الله قلبا عن ذكركم
سرى وافاكم بفتى أضناه ما لاقى	لو شاء هملي نسيم الصبح حين

لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
كان التجاري بمحض الود من زمن
فالأز أحمد ما كنا لعهدكم
سلوتم وبقينا نحن عشاقا
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون وإنما أردنا أن نمهد
لتلك النونية البديعة التي نفحنها بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأذباء في جميع البلاد
العربية وهي في الشعر العربي تذكر لبليالي ميسيه في الشعر الفرنسي فكما أن
الفرنسيين جميعا يعرفون لبليالي ميسيه فالعرب يعرفون جميعا نونية ابن زيدون،
فإن كان في القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته فإنه
لا يليق بشاب مثقف يجهل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول: إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب،
والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب
الفحول من الرجال وإنما نشير إلى أن رواية الأديب الحق الذي يصدر عن
صدق المشاعر والقلوب هي في ذاتها متعة ذوقية لا يصدف عنها إلا الغافلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء^(١):

أضحى التنائي بدبلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله إلا وهي مؤلفة الشمل
ولا كذلك نونية شوقي فإنها مختلفة الأغراض. وستكشف الموازنة عن تنقل شوقي من فن إلى فن
ونفاذه من مسلك إلى مسلك.

ألا وقد حان صبح البين صبحنا
 من مبلغ المبلسينا بانتراحهم
 إن الزمان الذي ما زال يضحكنا
 غيظ العدا من تساقينا الهوى فدع
 فأنحل ما كان معقودا بأنفسنا
 وقد نكون وما يخشى تفرقنا
 يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم
 لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد
 كنا نرى اليأس تسليتنا عوارضه
 بنتم وبنافما ابتلت جوانحننا
 نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
 حالت لفقصدكم أيامنا فغدت
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا
 وإذا صهرنا فنون الوصل دانية
 ليسق عهدكم عهد السرور فما
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
 والله ما طلبت أرواحنا بدلا
 يساري البرق غاد القصر فاسق به
 وأسأل هنالك هل عنى تذكرنا
 وبانسيم الصبح بلغ تحيتنا

حين فقام بنا للحين ناعينا
 حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
 أنسا بقرهم قد عاد يكيينا
 أو بأن نغص فقال الدهر آمينا
 وانبت ما كان موصولا بأيدينا
 فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
 هل نال حظا من العتبي أعاديينا
 رأيا ولم نتقلد غيره ديننا
 بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا
 وقد يئسنا فما لليأس يغيرنا
 شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
 يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
 سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
 ومربع اللهو صاف من تصافينا
 قطوفه فجنينا منه ماشينا
 كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
 إذ طالما غير اليأس المحيينا
 منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
 من كل صرف الهوى والود يسقينا
 إلقا تذكره أمسى يعيننا
 من لو على البعد حيا كان يحينا

منه وإن لم يكن غبا تقاضينا
 مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
 من ناصع التبر إيداعا وتحسينا
 توم العقود وأدمته البرى لينا
 بل ما تجلى لها إلا أحينا
 زهر الكواكب تعويدا وتزينا
 وفي المسودة كفاف من تكافينا
 وردا جلاه الصبا غضا ونسرنا
 منى ضروبا ولذات أفانينا
 في وشى نعمى سحبا ذيله حينا
 فقدرك المعطي عن ذاك يغنينا
 فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيننا
 والكوثر العذب زقوما وغسلينا
 والسعد قد غض من أجفان واشينا
 حتى يكاد لسان الصبح يشفينا
 عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
 مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
 شربا وإن كان يروينا فيظميننا
 سالين عنه ولم نهجره قالينا
 لكن عدتنا على كره عوادينا
 فينا الشمول وغنانا مغنينا

فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة
 ريب ملك كأن الله أنشأه
 أو صاغه ورقا محضا وتوجه
 إذا تآود آدته رفاهية
 كانت له الشمس ظئرا في أكلته
 كأنها أثبتت في صحن وجته
 ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا
 يا روضة طالما أجننت لواحظنا
 ويا حياة تملينا بزهرتها
 ويا نعما خطرنا من غضارته
 لسنا نسليك إجلالا وتكرمة
 إذا انفردت وما شوركت في صفة
 يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
 كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
 سران في خساطر الظلماء يكتمنا
 لا غرو في أن ذكرنا الحب حين نبت
 إنا قرأنا الأسي يوم النوى سورا
 أما هواك فلم نعدل بمنهله
 لم نجف أفتق جمال أنت كوكبه
 ولا اختيار تجنباها عن كئيب
 نأسى عليك إذا حثت مشعشة

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا
 دومي على العهد ما دمنا محافظة
 فما استعضنا خليلا منك يجبسنا
 ولو صبا نحونا من علو مطلعته
 أبلى وفاء وإن لم تبذلني صلة
 وفي الجواب متاع إن شفعت به
 سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
 فالحر من دان إنصافا كما ديننا
 ولا استفدنا حبيبا عنك يثينا
 بدر الدجى لم يكن حاشاك يصيبنا
 فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
 بيض الأيادي التي مازلت تولينا

تلکم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون.

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسنة
 هيهات فلا يمكن أن يكون لمثله هوى واحد، وكيف وهو رجل طامح القلب
 مرهف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسنة ولو أنه دون جميع ما
 طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات:

ودع الصبر محب ودعك
 يقرع السن على أن لم يكن
 يا أبا البدر سناء وسنا
 إن يطل بعدك ليلي فلکم
 ذائع من سره ما استودعك
 زاد في تلك الخطى إذ شيعك
 رحم الله زمانا أطلعك
 بت أشكو قصر الليل معك

الموازنة بين القصيدتين

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب ويكاد يعرف أسرار النفوس فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب ونخشى أن يتحيف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء ولكن كيف نستكثر القول في شوقي وقد بز ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضج لها شعراء مصر.. وأجابه إسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وعبد الحلیم المصري ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجري في ميدانه ولم يؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون بشكوى اليبين والأعداء والزمان وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبها ما وشيت به من الزخرف ولكن أين هي من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين فاندفع يقول:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لواديننا
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا	سهما وسل عليك البين سكيننا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع	من الجناحين عي لا يليننا
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرقنا	إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمأ	ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا

تجر من فنن ذيل إلى فنن وتسحب الذيل ترتاد المؤاسنا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا

والشاعر في هذه الأبيات حيران يجعل الطائر في حالين حال المغترب وحال المقيم.. فما تدري أيبكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال:

تجر من فنن ذيل إلى فنن وتسحب الذيل ترتاد المؤاسنا

وهي حال نشهداها في الطائر المحزون، فقد نرى الطائر ينتقل على غير هدى من إليك إلى أليك، فنعرف أنه يبحث عن يواسيه، ولكن أين من يواسي الطائر الحزين. إن شوقي نفسه أخطأ حين قال:

أساة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه وإنما يجد من يذبحه ويشويه والناس الأم من أن يطبوا لطيئر جريح.

وانتقل ابن زيدون من شكي البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقي فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر فقال:

واها لنا نازحي أيك بأندلس وإن حللنا رفيقا من رواينا

رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلال يثينا

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ولا مفارقهم إلا مصلينا

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة للناس كانت لهم أخلاقهم دينا

لم نسر من حرم إلا إلى حرم
 لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
 كاخمر من بابل سارت لدارينا
 ناسقي ثراهم ثناء كلما نثرت
 تماثل الورد خيريا ونسرينا
 كادت عيون قوافينا تحركه
 دموعنا نظمت منها مراثينا
 وكدن يوقظن في الترب السلاطينا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات فالشاعر يغلبه الدمع وهو يتذكر
 ملوك الأندلس ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء لأنه في ديار قوم لم تنقل الأرض
 أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله وذلك من
 أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية فهو في الأندلس لا يسري
 من حرم إلى حرم ولكن كيف؟ كاخمر سارت من بابل إلى دارين وقدسية
 الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل:

لكن مصر وإن أغضت على مقة
 على جوانبها رفت تماننا
 عين من الخلد بالكافور تسقينا
 وحول حافاتهما قامت رواقينا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال:

أحب بلاد الله ما بين منعج
 بلاد بها نيظت على تمانمي
 إلى وسلمى لويصوب سحابها
 وأول أرض مس جسمي تراها

والبكر هو قول شوقي:

ملاعب مرحت فيها مآربنا
 وأربع أنست فيها أمانينا

وإنما كان هذا معنى بكرا لما فيه من طرافة الخيال، أرأيتم كيف تمرح المأرب
وكيف تأنس الأمانى؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١ وكان دعاني للغداء عنده
بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي وسعيد عبده وأحمد علام
فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر وسألت نفسي: كيف كان ذلك الملاك في
صباه؟

إن حنين شوقي إلى مصر حنين عميق وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في
مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا
الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس
وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مضمخة بالسحر والفتون وكان للجمال قدسية
وكان للصبيا سلطان. وكانت خطوب الزمن لا تهد النفوس كما تفعل في هذه
الأيام.

ومن البكر أيضا قول شوقي:

بنا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغاديننا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهب في السيم تلقينا

يريد أن يقول: إن مصر لم تلقه في يم المنفى إلا خوفا عليه من كيد فرعون..
فرعون القرن العشرين المسترجون بول!!

تذكروا قول ابن زيدون:

يا ساري البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا

واسأل هنالك هل عنى تذكرنا إلفاتذكره أمسى يعيننا

وهذا شعر جميل ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال:

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا	بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
لما تفرق في دمع السماء دما	هاج البكا فخضبنا الأرض باقينا
الليل يشهد لم نهنك دياجيه	على نيام ولم نهتف بسالينا
والسجى لم يرنا إلا على قدم	قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة في سماء الليل حائرة	مما نردد فيه حين يعضونا
بالله إن جبت ظلما العباب على	نجائب النور محمدا (بجبرينا) ^(١)
ترد عنك يداه كل عادية	إنسا يعثن فسادا أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية	على الغيوث وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوف اللازورد على	وشي الزبرجد من أفواف واديننا
وحازك الريف أرجاء مؤرجة	ربت خمائل واهتزت بساتينا
قف إلى النيل واهتف في خمائله	وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وأس ما بات يذوي من منازلنا	بالحادثات ويضوي من مغانينا

انظروا ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الداوية والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض وأعطى صورة من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل.

(١) جبرين: لغة في جبريل.

وقال ابن زيدون:

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حيا كان يجينا

عارضه شوقي فقال:

ويا معطرة الوادي سرت سحرا
ذكية الذيل لو خلنا غلاتها
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
فلو جزيناك بالأرواح غالية
هل من ذيولك مسكى نحمله
إلى الذين وجدنا ود غيرهمو

فطاب كل طروح من مرامينا
قميص يوسف لم نحسب مغالينا
بالورد كتبنا وبالرياء عناوينا
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
غرائب الشوق وشيا من أمالينا
دنيا وودهم الصافي هو الدينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال: (يا نسيم الصبا) وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يفتن افتنانا يدل على قوة الشاعرية وبراعة الخيال فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي، وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق، وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف. وأنها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسما في رسائل وأتت بالريا ممثلة في عناوين وشكرها النعمى فقال:

فلو جزيناك بالأرواح غالية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

وأن ابن زيدون يقول (بلغ تحيتنا) وهي عبارة جافية لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق ويقول:

هل من ذيولك مسكى نحمله
غرائب الشوق وشيا من أمالينا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفه بتحية، وشوقي يحمل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يشوق إليهم فهو في صفاء الدين.

ولا تنكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون فقول شوقي:

ياساري البرق يرمي عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا

اختلس برفق وحذق من قول ابن زيدون:

ينتم وبنافما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة أبيات بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتا وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون فكان لا بد له من توشية بارعة تعفي على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون، ولابن زيدون فضل السبق ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصورة الشعرية وهو فضل ليس بالقليل.

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأُنس فقال:

سودا وكانت بكم بيضا لياينا	حالت لفقدمو أيامنا فغدت
ومربع اللهو صاف من تصافينا	إذ جانب العيش طلق من تألفنا
قطوفه فجنينا منه ماشينا	وإذ هصرنا فنون الوصل دانية
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا	ليسق عهدكم عهد السرور فما

وهذا شعر صافي الديباجة رائع المعاني ولكن انظروا كيف عارضه شوقي
فجمع بين الأسي والفخر حين قال:

سقيا لعهد كأكناف الربارفة^(١)
إذ الزمان بنا غيناء زاهية
الوصل صافية والعيش ناغية
والشمس تختال في العقيان تحسبها
والنيل يقبل كالنديا إذا احتفلت
والسعد لودام والنديا لو اطردت
ألقي على الأرض حتى ردها ذهباً
أعداه من يمنه (التابوت)
له مبالغ ما في الخلق من كرم
لم يجر للدهر أعذار ولا عرس
ولا حوى السعد أطفى في أعتته
نحن اليواقيت خاض النار جوهرها
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق..

أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
ترف أوقاتنا فيها رياحينا
والسعد حاشية والدهر ماشينا
بلقيس ترفل في وشي اليانينا
لو كان فيها وفاء للمصافينا
والسيل لوعف والمقدار لودينا
ماء لمسنا به الأكسير أو طينا
على جوانبه الأنوار من سينا
عهد الكرام وميثاق الوفيننا
إلا بأيامنا أو في ليالينا^(٢)
منا جيداً ولا أرخى مياديننا
ولم يهن بيد التشثيت غالينا
إذا تلون كالخرباء شانينا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود لأن ابن
زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال:
وإذ هصرنا فنون الأنس دانية
قطوفه فجنينا منه ماشينا

(١) رفة: النضرة.

(٢) الاعذار: طعام يتخذ لأيام السرور.

وبلغ غاية الدقة حين قال:

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف، تألف القلبين واللهم لم يصف مورده إلا بفضل التصافي تصافي الحبيين والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء وإنما تصفو حين تصفو النفوس وتقسو حين تقسو القلوب فالزهر، الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفت لك، وقد يراه غيرك في ابتسامه صورة من صور العبوس والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة فتراه عاشقا يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب.

ويروقتنا قول شوقي:

سقيا لعهد كأكناف الربارفة	أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية	ترف أوقاتنا فيها رياحيننا
الوصل صافية والعيش ناغية	والسعد حاشية والدهر ماشينا
والنبيل يقبل كالدينا إذا احتفلت	لو كان فيها وفاء للمصافينا

يروقتنا هذا الشعر لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يفتح في أكناف الربوات، ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيها باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبا جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعر أمكته من أعطاف الصبا سورة الصبوات. ويروقتنا أيضا لطرافة هذا الخيال:

(ترف أوقاتنا فيها رياحينا)

ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أرجوحة
اللهو الجموح. ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل
كالدنيا حين تحتفل وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ثم تأملوا روعة هذا
الاستدراك:

(لو كان فيها وفاء للمصافينا)

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل
محبوبته كل شيء حين قال:

يا روضة طالما أجننت لواحظنا	وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها	منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من نضارته	في وشي نعيمى سحبتنا ذيله حينا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون؟ أترون العذوبة في
الهتاف بالروضة التي (طالما أجننت لواحظنا وردا جلاه الصبا) تأملوا عبارة
(أجننت لواحظنا) انظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها
المرموق والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة وإنما تهجم
الروضة عليه فعلمه كيف يهصر الأفنان وكيف يجني القطوف وعبارة (جلاه
الصبا) ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ؟؟

ثم ما هذا التعبير الطريف:

(منى ضروبا ولذات أفانينا)

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوان وللذات أفانين؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرة في كوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت:

ويا نعيميا خطرنا من نضارته في وشي نعيمى سحبتنا ذيله حيننا

أتحسون قوة هذا المعنى؟ ألا يريكم الخيال صورة فنان منعم يسحب ذيل النعيم؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في التحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود.

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين أما ابن زيدون فيقول:

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها	والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا	والدهر قد غض من أجفان واثينا
سران في خاطر الظلماء يكتمننا	حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غروا أنا ذكرنا الحب حين نبت	عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إننا قرأنا الأسى يوم النوى سورا	مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله	شربا وإن كان يروينا فيظميننا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه	سالين عنه ولكن نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبنك عن كئيب	لكن عدتنا على كرة عوادينا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف، ويرى نفسه
انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين، ويرى ورد الهوى القديم شرباً لا
يعدله شرب، وإن كان يرويه فيظميه ونعيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب
ظماً والتياغاً إلى التياغ، وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا
صدود وإنما أكرهته العوادي.

ويروقنا هذا التعبير المونق:

(لم تحجب أفق جمال أنت كوكبه)

فكان الدنيا كانت لعهد من المفاتن.. وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق
المطلول بأنداء الفتون.

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون وعارضه شوقي فقال يصف
قسوة الليل وقسوة الفراق:

ونسايفي كأن الحشر آخره	تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوي دجاء بجرح من فراقكمو	يكاد في غلس الأسحار يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا	حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسي الدواهي من كواكبه	حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبعدو النهار فيخفيه تجلدنا	للشامتين ويأسوه تأسينا

وهذا من الشعر الرفيع ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف وإلا
فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت:

نطوي دجاء بجرح من فراقكمو يكاد في غلس الأسحار يطوينا

أترون كيف يطوي الدجى بالجرح؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من
ظلمات الليل؟؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطاء الكواكب، ثم ينظر
فيراها ابتليت به فباتت تقاسيه وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يعظم
سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من
الشواغل أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهارة إلا بفضل التأسى والتجلد
للشامتين.

بقي النظر فيما تفرد به الشاعران.

ونحن نرى أن ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيته التي أقصاه
عنها الزمان:

نأسى عليك إذا حثت مشعشة فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

وهذا من أدق المعاني النفسية فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية
ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من
الجمر المشبوب، وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع؟؟
إن هذه لحظات تكشف المقنع من سرائر النفوس وتصنع ما تصنع الحمى
العاتية حين تنطق المحموم بأسساء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون:

ولو صبا نحونا من علو مطلعته بدر الدجى لم يكن حاشاك يصيبنا

هو صل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهو أخذ رفيق لا يحاسب على مثله الشعراء.

وتفرد شوقي بالفخر بنفسه وبأعجاد النيل فقال:

لم يمر للدهر أعذار ولا عرس إلا بأيامنا أو في ليالينا
ولا حوى السعد أطفى في أعتقه منا جيادا ولا أرخى مياديننا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبيغ ولا خللق إذا تلون كالخرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميدانا ولا صعدت في ملكها الضخم عرشا مثل واديننا
ألم تؤله على حافاتهِ ورأت عليه أبناءها الغر الميامينا
إن غازلت شاطئه في الضحى لبسا خمائل السندس الموشية الغينا^(١)
وبات كل مجاج الواد من شجر لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجهل دفاع وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف.

(١) الغين: جمع أغين، وهو الأخضر، والمؤنث غيناء.

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال:

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا

وقد صدق.. فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال وانتاشه
الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته
يصعب هدمه وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال:

وهذه الأرض من سهل ومن جبل	قبل القياصير دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بان على حجر	في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت	به يد الدهر لا بنيان بانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره	يفنى الملوك ولا يبقى الأواوين ^(١)
كأنها ورمالا حولها التطمت	سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا	كنوز فرعون غطين الموازينا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت:

ولم يضع حجرا بان على حجر في الأرض إلا على آثار بانينا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت:

كأن أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان بانينا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت:

(١) الأواوين: جمع إيوان.

كأنها ورمالا حولها التطمت سفينة غرقت إلا أساطينا
وذلك شوقي وتلك آياته البيئات.

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور الإنسانية وأعطى شوقي مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية أما صور النيل فقد رآها القارئ من قبل.. وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات:

رييب ملك كأن الله أنشأه	مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه	من ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تآود آدته رفاهية	توم العقود وآدته السبرى لينا
كانت له الشمس ظئرا في أكلته	بل ما تجلى لها إلا أحيانا
كأنها أثبتت في صحن وجتته	زهر الكواكب تعويذا وتزيننا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا	وفي المودة كاف من تكافينا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة، وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم.. والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمان المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف ولكل لون من ألوان الجمال المحجب شبيها بما يوحيه الجمال المباح. إن الطبيعة قد يبدو لها أحيانا أن تكايد الناس فتنشئ من الحسن من حي بولاق ما تغيظ به الناعمين في حي القصر العالي، ولكنها لا تفلح، فالجمال الذي ينبت في البيئات السوقية يظل شوقي

المتماثل والنوازع أما الجمال الذي يتفتح في البيئات المنعمة فيظل ملحوظ
المشارب والميول.

فممشوقة ابن زيدون ربيبة ملك وربيبه الملك تألف السيطرة منذ أيام المهدي
ويظل دلالها طول الحياة دلالا سماويا يأخذ فيضه من قوة الطبع لا من لؤم
التمنع، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان وابن زيدون يتمثل
محبوبته خلقت من المسك. ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين، وكلمة
(طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون إلا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض
الناس، والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين.. وإن كان الطين أشرف
من بعض من نرى من المخلوقات. والطين تربة يحيا بها الزهر ويتغذى بها
الشوك وفوقه تتخطر الطباء، وعليه تزحف الأفاعي والصلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال:

إذا تآود آدته رفاهية توم العقود وأدمته البرى لينا

والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخللاخيل جمال غض
رقيق يشبه في رفته نواطر العيون ولفائف القلوب وهذا الجمال متثور في المدائن
نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف الشاعر قيمة النعمة
العظيمة نعمة البصر والحسن والذوق، لولا الجمال المنعم المصون -الذي لا
يطمع في تقيء ظلاله غبي ولا لئيم- لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من
الأنفاس العطرة وأنفاس الشعراء.. لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع
في تقيء ظلاله غبي ولا لئيم لما استطاب شاعر سهر الليل وألم الجفون وهل
يعنى القلب في سبيل الجمال المبتذل.. الذي ترنو إليه جميع العيون؟ إن الجمال

المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذي لا تألم من النظر إليه عين رمداء أما الجمال
المصون فشيبه بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء
والأقطاب من الكتاب، هو الجمال الفرد ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان
يتواضع فيقول:

ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا وفي المودة كاف من تكافينا

هذا تواضع فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفس من جوهر الحسن في
وجه الجميل وهل تعربد معاني الصباحة في الوجه المليح كما تعربد عرائس
الشعر في قلب الشاعر الذي يلقي الأنوار والظلمات وحوله جيش من الهوى
المتورد والوجد المشبوب؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحد جمال
الصبح المشرق ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم. ولا تلفت
باحث إلى شعر ابن زيدون وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

ثم ماذا؟ بقي أن نشرب صباية الكأس من نونية شوقي، وكل صباية في
الكأس صاب، بقي أن نتوجع لبلواه وهو يتشوق إلى مصر فيقول:

أرض الأبوة والميلاد طيها	مر الصبا في ذيول من تصايينا
كانت محجلة فيها مواقفنا	غرا مسلسللة المجرى قوافينا
فآب من كرة الأيام لاعبنا	وثاب من سنة الأحلام لاهينا
ولم تدع لليالي صافيا فدعت	(بأن نغص فقال الدهر آمينا)
لو استطعنا لخصنا الجو صاعقة	والبر نار وغى والبحر غسلينا
سعيًا إلى مصر نقضي حق ذاكرنا	فيها إذانسي الوافي وباكيننا

أرأيتم هذا الشعر؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت:

فأب من كرة الأيام لآعبنا وثاب من سنة الأحلام لآهينا

أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت:

لو استطعنا لخصنا الجوصاعة والبر نار وغي والبحر غسلينا

ثم ماذا؟ بقي ختام القصيدة وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمي
يرحمها الله.

وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان:

كنز بحلوان عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأتته الشوق إلا من نواحيننا
إذا حملنا مصر أوله شجننا لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

طيب الله ثراك أيها الشاعر.. ورحم والدي ووالديك فالدعاء في أعقاب
شعرك كاللحاء في أعقاب الصلوات.

الموازنة بين عبقرية وعبقرية

نعيش الآن مع صفحات منقولة من كتاب (الموازنة بين الشعراء) لأنها من ناحية تتحدث عن ماهية الناقد ومن ناحية ثانية هي نقد لشعر شوقي كما يراه بعض النقاد وكما يراه زكي مبارك..

يقول زكي مبارك^(١):

(إن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية.. ويفاضل بين بصيرة وبصيرة ويقارن بين إدراك وإدراك، بغض النظر عن الفروق الموضوعية التي يقضي بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة، ولكنها ضرورية: يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، ليسبر كما قلت أغوار نفسه، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء).

ثم يقول زكي مبارك^(٢):

على الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يعنى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٢٤.

(٢) نفس المرجع صفحة ٢٠.

فقد أنكروا على شوقي قوله:

أرفعي الستر وحيي بالجيين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفني الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم المحسنين
واتركي فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الأمين

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي الهودج في ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم.

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محبوب:

لكم في الخط سيارة حديث الجار والجاره

واستخفوا كلمة (حديث الجار والجاره) وفاتهم أن الدكتور محبوب يسكن في حي قد لا يعرف أهله غير الخيل والبغال والحمير.

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم:

أمشي يرنحني الأسى والبؤس ترنيح الشراب

لأن اليتيم البائس لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظ يرى هذه المناظر في الصباح والمساء.

واستضعفوا قول مطران في رثاء إسماعيل صبري:

شهب تبين فما ثوب فكأنها حسب يذوب
أرأيت في كأس الطلا دررا وقد صعدت تصوب
هو ذاك في لبح السدجى طفو الدراري والرسوب

لا فرق بين كبيرها وصغيرها فيما ينوب

لأن مقام الرثاء يجلب عن ذكر الحب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب بالحب حين يذوب ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه المراح.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور:

ضربوا القباب على الشباب	وثووا إلى يوم الحساب
همدوا وكل محرك	يوم ما سيسكن في التراب
نزلوا على ذئب البلي	فتضيفوا شر الذئاب
وكانهم صرعى كرى	بالقاع أو صرعى شراب
فإذا صحووا وتبهوا	فإن الله أعلم بالمساب

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال، وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية:

ما أنت يا دنيا أرويا نائم؟	أم ليل عرس؟ أم بساط سلاف
نعم أو كاليوم إلا أنه	مست حواشيه نقيع زعاف

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه: لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز؟

فقال: أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله، فأنشده قوله في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة	قد أثقلته حمولة من عنبر
------------------------	-------------------------

فقال له: زدني، فأنشده:

كأن أزريونها
مداهن من ذهب
غيب سماء هاميه
فيها بقايا غاليه

فصاح: واغوثاه. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا
يطرزها قوس السحاب بأخضر
من الجود كنا والحواشي على الأرض
على أحمري في أصفر إثر مبيض
مصبغة والبعض أقصر من بعض
كأذيال خود أقبلت في غلائل

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازا مررت به
ما بين رؤيتها في كفه كرة
يدحو الرقاقة مثل الملح المبصر
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع تشبيه الأريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فإن سبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتت لكل من الشعارين ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن تعتمد إلى الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدوي في بدوته أشعر من الحضري في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح المسموم في مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته:

فتاة كأن رضاب البعير وفيها يعل به الزنجبيل

بأقل من قول الشريف الرضي:

يبسمن عن برد الغمام ويرده ريان يغبق بالمدام ويصبح

ولا يفضلها من قال: (كأني ألتقط من فيها حب الرمان) لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغض النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حب الرمان، أحلى ما تعطر به الثنايا في الحضارة ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جافي اللفظ بادي الخيال، لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية، وهي روح البيان، ثم أسكنه قصرا من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها:

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
 سلوت ولكن زدن جمر على جمر
 تشك بأطراف المثقفة السمر^(١)
 وأعرفني بالحلو منه وبالمر
 أرق من الشكوى وأقسى من الهجر

عيون المها بين الرصافة والجسر
 أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
 سلمن وأسلمن القلوب كأنها
 خليبي ما أحلى الهوى وأمره
 بما بيننا من حرمة هل علمتها

(١) المثقفة السمر: هي الرماح.

أحمد شوقي وزكي مبارك

كانت الأيام قد جمعت بين أحمد شوقي وزكي مبارك فتوثقت بينهما الصلة ثم عادت الأيام وفرقت بينهما، ولم يعد زكي مبارك يزور أحمد شوقي ولم يعد أحمد شوقي يسأل عن زكي مبارك.

ولم يكتب أحمد شوقي بعدم السؤال عن زكي مبارك! ولكن كيف؟

في سنة ١٩٢٧ يرى إصدار عدد خاص من السياسة الأسبوعية (لتكريم أحمد شوقي) ويدعى للاشتراك في تحرير هذا العدد الخاص رجال كان فيهم زكي مبارك، ويرى شوقي أن من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان من بينها مقال زكي مبارك.

وتدور الأيام ويتنقل أحمد شوقي إلى عالم الخلود فماذا نرى؟

نرى زكي مبارك يكتب ويكتب عن أحمد شوقي.

صحيح أن زكي مبارك قال: إن شوقي الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقي الذي يعرفه الناس كإنسان اجتماعي يخطئ ويصيب بين الحق والواجب.

ولكن زكي مبارك قال أيضا: لم أسع يوما إلى شوقي الشاعر، والحمد لله وإن كنت بعث حظي في شوقي الصديق.

ويقول زكي مبارك: شوقي شاعر مصر، وهو على جحوده أستاذ الأساتذة في ميدان القصيد.

ثم انظر كيف يتحدث زكي مبارك إلى شوقي فيقول له: طيب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كاللحاء في أعقاب الصلوات.. والآن مع بعض مقالات للأديب الناقد الفنان الدكتور زكي مبارك بعضها نشر في حياة الشاعر أحمد شوقي وبعضها نشر بعد رحيل الشاعر أحمد شوقي إلى عالم الخلود.

مقاصد الشعراء (١)

نريد من مقاصد الشعراء الغايات النبيلة التي يسعون إليها في الحياة، وبعبارة أوضح الصور الجميلة التي تتمثلها أرواحهم كلما هموا بضرب الأمثال للناس، ولست أريد في هذه الكلمة أن أنتزع صورة للشاعرية الحقة من بين ما قرأت من شعر العرب والفرنجة فإن ذلك وإن صح أن يكون هاديا لبعض العقول، فإنه كثير في الكتب المختارة من دواوين ومجاميع، وهو على الجملة في مقدور كثير من أهل العلم والبيان.

لم يعرف العلماء ولا الأدباء -إلا قليلا منهم- معنى الشعر في القرآن أو ما يقصد العرب من وصف النبي بأنه شاعر، أو الصورة التي تمثلوها حينما ظنوا القرآن قصيدة طويلة، وأحسوا أن النبي شاعر مطيل، ويخطئ من يظن أنهم

(١) جريدة المحروسة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٠.

هازئون في وصف النبي بالشاعرية فإن الشعر كان عندهم في منزلة فوق الإعزاز والإجلال ولكنهم أرادوا أن يصفوه بالعبقرية وأن يجعلوا رسالته في وصف الأماني العالية التي لا يتخيلها إلا الشعراء وأن يجعلوا لأنفسهم عذرا في التخلف إذا رأوا في الشريعة تكليفا فوق الوسع، ثم استحبوا العمى على الهدى، فما يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس وأريد أن أقول: إنهم يرون في الشعر شرعة خاصة يلزم باتباعها من سمت نفسه إلى إدراك ما يوحى به إلى الشاعر المجيد، فهم يشيرون على النبي بأن يبحث عن طائفة من الناس تفهم كما يفهم ويكون مرأى الحياة في إدراكها كمرآها في إدراكه ويلد لها من التكاليف العصبية ما يلزمه أما هم فإنهم بفضل سلامتهم من جنون الشعراء - والنبوغ نوع من الجنون - غير مكلفين باتباع ما يبدع الشعر وأهله من أنظمة الحياة العالية وكذلك يرون التشريع الخاص غير التشريع العام ويرون شريعة النبي دقة تسمو بها إلى الشرائع النظرية، وتبعدها عن الشرائع العملية، وإنهم لفي ضلال مبين.

الشعر في نظر العرب يدعو إلى شريف الخلال، وكريم الخصال، أو يبدع ضورا للذائد الحسية والمعنوية فالحق العالي الصرح والباطل الواهي الأساس والفضيلة العالية والرذيلة السافلة، كل أولئك مما يقع تحت حس الشاعر المبدع فهو فاضل إن دعا إلى الفضيلة، وناقص إن زين الرذيلة، وهو على كل حال معروف بالقدرة على وصف ما يدعو إليه العقل، أو يرنو له القلب، وللناس فيها يعشقون مذاهب.

وأقول ذلك لثلا يحسب واهم أني أجعل الشعراء في درجة الأنبياء ولكن كذلك أرجو أن لا يختلف عني بعض القراء فيما فهمناه معا من أن الشعر إنما يضع الأمثلة العالية، أو يصف الأمثلة العالية، فالشاعر إما واضع قادر أو واصف ماهر والناس مختلفون في اتباعه فمنهم من يتبعه أحسن أم أساء، لأن الحياة عندهم ذات ألوان. والشاعر يصف ألوانها الذميمة والوسيمة وهم يريدون أن يتذوقوا كل مظاهر الحياة ومنهم من يتبعه إن أخطأ ويصدق عنه إن أصاب. وهؤلاء هم المخلدون إلى الحياة الوادعة، والصادفون عن الحياة الخاملة، وهم لا يقرءون كل شعر كالصنف الأول ليقفوا على أنواع المدركات من حق واضح أو باطل فاضح ولكنهم يعكفون على طائفة من الشعر الذي انفصمت عراه، وتفككت أوصاله، ليطم التناسب بين ما تعمل أيديهم وما تقرأ ألسنتهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

ومن الناس من يتبع الشعر الداعي إلى الحق، ويرى فيه نفحة من نفحات النبوة وعلامة من علائم الرسالة، والشعراء عنده لا يتفاوتون بما يتفاوتون به غيره من الرغبة في الفضيلة أو الميل إلى الرذيلة، ولكنهم يتفاضلون بتقديرهم للفضائل، وتصويرهم للمحامد، فهو يفضل بعض الشعراء على بعض، كما فضل بعض الأنبياء على بعض وهؤلاء الشعراء وتابعوهم من بناء المجد هم الذين عناهم أبو تمام حين قال:

ولولا خلال سننها الشعر ما درى بناء المعالي كيف تؤتى المكارم

ولا يتوهم قارئ أن اختلاف الشعراء في مذاهبهم الخلقية مما يؤثر عليه في الحكم من الناحية اللغوية فإن أبا نواس في خمرياته أصح من أبي العتاهية في

زهدياته، لكن هناك وجها آخر للمفاضلة: وهو أن للغواية درجات، كما أن للهداية درجات فالمثل العالي للخلاعة إنما يدركه الخلعاء والمثل الأعلى للنبالة إنما يدركه الشعراء النبلاء ولكل شعر موضع، ولكل مقام مقال، فليس للشاعر أن يلبس روح الخليع حينما يريد أن يكون قدوة في المكارم وليس له أن يلبس روح النبيل حينما يرغب أن يكون عمدة في المآثم وإنما يلبس لكل حال لباسها من جد وهزل، فيتعالى في الجد حتى يقال نبي مرسل، أو حكيم موفق، ويتراجع في الهزل، حتى يقال ماجن مازح، أو ذو نشوة خليع.

إذا جد حين البأس أغناك جده وذو باطل إن شئت أرضاك باطله

وليس يخفى على القارئ أي هنا إنما أحكم على أنواع الشعر وطوائف الشعراء ولست أدعو إلى مذهب خاص أو طريقة معينة فإن لذلك بحثا غير هذا البحث وأريد أن أسأل القارئ بعد ما سلف من البيان:

هل الشعر في مشروع اتفاق ملنر من الجد أو الهزل؟ وهل الشعراء فيه من الخلفاء أو الحكماء؟

وفي المقال الثاني وهو تنمة للمقال الأول يقول الأديب الناقد زكي مبارك^(١) عن قصيدة شوقي في مشروع ملنر:

قرأنا للشاعر المجيد أحمد بك شوقي قصيدة في هذه الاتفاقية. كان نصفها الأول النسيب، وهو يتطلب الإسراف في الخلاعة، فلذلك راقنا منه أن يذكر أن قلبه لم يقلع عن الغواية وهو أشيب، وأن سرب الغواني لعب بلبه فأضله عن

(١) جريدة المحروسة ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠.

سواء السبيل، راقنا ذلك كله: لأننا نستملح كل ما يأتي عن طريق القلب ولأن النسيب من الأشيب عنوان ظرفه ولأن هذا المثل مما يتأسى به المسرفون في الصبابة وهم أحداث، ولا ننكر أن هذا مقبول ولو إنصافاً للفن وإذ كنا نود لو وصف شوقي نفسه بما وصف به ابن الصمة أخاه إذ قال:

صبا ما صبا حتى علا الشيب فلما علاه قال للباطل ابعده

وكان النصف الثاني بيانا لرأيه في مشروع الاتفاق ولا يستطيع من قرظ قصيدة شوقي تلك بكلمة موجزة أن يدعي أن الحكم على هذا المشروع مما يدخل في طائفة الحكم على عتق الخمر وصفاء الكأس وحلاوة العين، وجمال الأنف ورشاقة القد، إلى غير ذلك من الأوصاف الظاهرة لمحاسن النساء أو الأشجار أو الأنهار أو الجبال وإنما هو حكم على آمال أمة تختلف أطعمها السياسية باختلاف عقول أبنائها البررة من علماء وحكماء وشعراء وباختلاف الآمال ضعفا وقوة يوصف الرجل بأنه قوي أو ضعيف. ولئن كان الشاعر حرا في اختيار النوع الذي يجبه من الحياة فإنه غير حر أو غير مقتدى به في الدعوة إلى نوع من الحياة لا يتلاءم مع الشعب الذي ولد فيه والوطن الذي درج منه، وهو عرضة لأن يوصف بضعف العزيمة وخمود النفس وركود الطبع، وأهل لأن ينكر عليه ماضيه الأعز، وسابقه المخجل، وأقل ما يجد الناقد فيه من العيوب، أن شعره ليس شريعة عامة للشعب.

وأنه بدلا من أن يتعالى إلى أبحار الأمانى فهو ينسفل إلى ثنيات النوازع، فهو يدعو الناهضين إلى السقوط ولا يحض الساقطين على النهوض، وهل أوجب للعبت من أن يختص شوقي بك بتلك القصيدة التي لا تسوغ إلا لدى النفوس

الضعيفة ولا يبسم لها إلا من يشس من روح الله؟ إنه لا يصح لمثلي أن يلفت نظري شوقي إلى آمال المتنبى فهو أعلم بفضله وأعرف، ولكن ألا يصح أن نرسل دمعة واحدة في توديع الآداب العربية؟

لقد بلغ ضعف النفوس مبلغا لا يستهان به حتى لقد كتب (شاعر) يعرفني وأعرفه قطعة في مدح المشروع ولم يجرؤ على التصريح باسمه ولكنني عرفته بسيما شعره وسأعاتبه بعد حين فأين هذا المحتجب من الذي قال:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس

إنكم لا تجهلون فضل المثال الأكمل في رءوس الوطنيين كما لم يجهل العرب فضل المثل الأعلى في الشعر الذي حسبوا القرآن نوعا منه فهل يهديكم الله من بعد كما هداهم من قبل؟

(١) شوقي

كلمة صدق في توديع أمير الشعراء

كان في مصر رجلا يقال لها حافظ وشوقي، وكان لذيнок الرجلين ولوع بالحديث عن الموت، وكان حافظ ينعى نفسه في كل مناسبة ويرحب بالراحة الأبدية، أما شوقي فكان يقف دائما وقفة المتطلع، ويتمنى لو حدثه الأموات عما بعد الموت، حتى كاد حديثه عما بعد الموت يعد من إحدى لوازمه في قصائد الرثاء.

وكان القدماء يرون أن الدنيا لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ونحن نرى أن الحياة لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول شوقي:

كم في الحياة من الصحراء من شبه وراء كل سبيل فيهما قدر
فلمست تدري وإن كنت الحريص
ولست تأمن عند الصحو فاجئة
ولست تدري وإن قدرت مجتهدا
ولست تملك من أمر الدليل سوى
كلتاهما في مفاجأة الفتى شرع
لا تعلم النفس ما يأتي وما يبدع
تهب ريحاهما أو يطلع السبع
من العواصف فيها الخوف والملع
متى تحط رحالا أو متى تضع
أن الدليل ولو أرداك متبع

أو قوله:

لبنان ردتني إليك من النوى
جمعت فزيلي ظهرها من فرقة
أقذار سير للحياة دراك
ككرة وراء صوالج الأفلاك
كالطير فوق مكامن الأشراك
نمشي عليها فوق كل فجاءة

والذي يقرأ ما سطره الكتاب في رثاء شوقي يراهم جميعا وقفوا يتحدثون عن الموت وعمّا بعد الموت، كأن ذلك الرجل الذي طال وقوفه بباب الأقدار ألهمهم ما يقولون في التطلع إلى ما سيكون بعد الموت.. أكان شوقي أول ميت حتى يثير كل هذه الشجون؟

لا لم يكن شوقي أول ميت، ولكن موت الشاعر فجينة تبعث على التفكير في حقائق الموت والحياة، وخاصة شوقي، فإننا لا نعرف إنسانا في مصر طابت له الحياة كما طابت لشوقي، ولا نعرف شاعرا تغنى بأطياب الحياة كما تغنى شوقي، فكان من الحق أن نسأل: وشوقي أيضا يموت؟

وبعد فمن شوقي؟ وما شعره؟

كان شوقي عاديا في حديثه، وفي مظهره، ولكنه كان في شعره أعجوبة الأعاجيب وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين ظنوا الشعر من وحي الشيطان فما أذكر أن حديث شوقي راعني مرة، أو دلني على أن للرجل عقلا يمتاز على سائر العقول، وكان مظهره بسيطا جدا لأنه كان يبغض اللباس الأثيق، وإنهم ليذكرون أنه كان يضيق صدرا بالملابس الرسمية، وأنه طلب من

الخديو السابق أن يعفيه من لبس الردنجات في عابدين، وأن الخديو أعفاه وأن شكله كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم بعض السفراء.

ولكن هل العبقرية لباس مهندم ولسان معسول؟

هيهات.. لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن يكون أشعر الناس في زمانه، لأن العبقرية سر مكنون، وقد أفصح هو عن ذلك أبرع إفصاح حين قال:

رب سامي البيان نبه شأني	أنا أسمو إلى نباهة شأنه
كان بالسبق والميادين أولى	لوجرى الحظ في سواء عنانه
ما الرحيق الذي تذوقون من كر	مي وإن عشت طائفاً بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع	أين فضل الحمام في تخنانه
وتر في اللهاة ما للمغنى	من يد في صفائه وليانه

ومن ذلك الوتر الرنان الذي وهبه شوقي كانت الدرع الحصينة التي يدفع بها سموم الحاقدين، فقد قامت في وجه الرجل أعاصير جائحة من النقد المسموم، فثبت لها ثبات الجبال الرواسخ، وظل هو في جميع الأحوال لا يجبو زنده، ولا ينكسر جناحه، ولا يقع طائرته، مع أن حاسديه لم يتورعوا - وهم ينهشون لحمه - من رميه بما يهد عزائم الرجال. وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة لشعره قد تكون من أجمل ما تغذى به خياله الوثاب، والقراء يذكرون أن ناسا عابوا عليه سكوته عند نعي حافظ وذهبوا يتقولون عليه الأقاويل، فدمغهم بقوله في رثاء حافظ:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة
ووددت لو أني فداك من الردى
الناطقون عن الضغينة والهوى
من كل هدام وبينني مجده
ما حطموك وإنما بك حطموا
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ
قدر وكل منية بقضاء
والكساذبون المرجفون فدائي
والموغرو الموتى على الأحياء
بكرائم الأتقاص والأشلاء
من ذا يحطم رفرف الجوزاء
في الشرق واسمك أرفع الأسماء

وهو يعني نفسه بالبيتين الأخيرين، وإن توهم القارئ أنه يعني حافظ إبراهيم.

كان شوقي مفطوراً على الشعر، وكانت الحياة في عينيه شعرية الملامح، وكان يستبجح من متع العيش كل ما حوت فرايس الشعراء وكانت حياته في بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعري أخاذ، وكان هيامه بقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليلاً على أن الرجل يقظ الشاعر، وأنه مفتون بدرس مظاهر الوجود، وكان الشعر يسود كل ما في حياته من نظام واضطراب. وقد تصادقنا حيناً وألفنا التلاقي في كل يوم حقبة من الزمان، فكنت ألاحظ أن للرجل نواحي هو فيها أضبط من الساعة - كما نعبر في لغة الحديث - ونواحي يهمل في ضبطها وتحديدها أغرب الإهمال، وهو في نظامه واضطرابه شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون.

وكان شوقي مفتوناً بأبنائه إلى حد العشق، وخاصة بابتته أمينة وابنه حسين، وله في أبنائه شعر رائع يدل على أن الرجل كان شاعر العقل والذوق والروح، وكان يتعلق بأصهاره تعلقاً شديداً يذكر بعيش الفطرة في خيام

الأعراب، وكانت منافع الدنيا تتمثل له فاتنة جذابة، لأن الرجل في شعره وفي صميم قلبه وروحه ونظامه السياسي والاجتماعي كان رجل دنيا، وكان لا يفهم كيف يكون الزهد وكيف يكون الإعراض عن أطايب العيش، والذين لاموا شوقي على التثبث بأهداب الجاه العريض لم ينظروا إلى الدنيا بعينيه القلقتين ولم يعرفوا كيف تكون السيطرة وكيف يكون الاستبداد بمتع العيش على شواطئ النيل. والحياة في مصر -وفي الدنيا كلها- لا تتم أسبابها بغير الجاه والمال، وكان الرجل يفهم ذلك فهم الشاعر، ولتصور القارئ كيف يكون فهم الشاعر، وخاصة عند أمثال شوقي ممن تلقوا الدنيا بحس مرهف وذوق مصقول.

كانت لشوقي دنيا قبل الحرب فأخرجته منها أفاعي الحوادث كما عبثت الحية فأخرجت آدم من الجنة، وقد ظلت ذكريات ذلك الفردوس المفقود تعتاده في اليقظة والنمام، وذلك هو سر تحفظه وحيطته في كل ما يمس دقائق السياسة العالية، فإن قال ناس: إنه لم يهب الجماهير صفو شعره فليذكروا أن ذلك لم يكن ليقع لو أن الرجل فطر ذوقه فطرة شعبية، وكيف كان يزهي ويفتن كلما تذكر أنه ولد في رحاب المجد والجاه.

كان شوقي مفتونا بشعره، كل الفتون، وكان لا يصدق أن في الدنيا شاعرا غيره.. وكان يعادي ويصادق على هذا الأساس، وقد اتفق أن توثقت بيننا أواصر الصداقة بعد عودته من المنفى، وظلت صداقتنا على خير حال نحو ثلاثة أعوام، فلما كان صيف سنة ١٩٢٥ طلب مني أن أكتب مقدمة للشوقيات فقبلت، ثم عدت فتذكرت أن الذوق يفرض أن تكتب المقدمة بشيء من

المجاملة، وأن هذا قد يضرني إذا اضطررت لنقد شعره في مستقبل الأيام، فكتبت إليه خطاباً أعتذر عن كتابة مقدمة للشوقيات وكان في الخطاب تعليل لذلك الاعتذار يتلخص في مصارحته بأنه عرضة للخطأ والصواب وأنني أحب أن أحفظ بحريتي في نقده إذا اقتضى الحال، وكنت أنتظر أن يتقبل الرجل عذري، ولكنه أسر الغضب وأضمر الجفاء وطوى ما كان بيننا من وداد منذ ذلك الحين^(١).

كان شوقي من كبار أهل العلم بأسرار اللغة العربية، وقد دانت له تعابيرها وأخيلتها وألفاظها بحيث كانت قصائده تحمل من صنوف الثروة اللغوية ما لا تظفر به قصائد غيره من المعاصرين إلا في النادر القليل، ومن رأى بعض رجال الأدب أن شوقي كان أعلم من حافظ باللغة، وحجته في ذلك أن حافظ لم يملك غير الديباجة المتينة أما شوقي فكان يقع على كلمات نادرة يطرز بها شعره من غير أن يشعر القارئ أنها اجتلبت عن طريق التكلف أو الافتعال، وكان شوقي بالفعل من المولعين بالمراجعات في كتب الأدب والتاريخ وكان يفهم جيداً أنه من أئمة الأدب، وأن من واجبه أن يتعرف إلى روائع الأدب القديم والحديث، وكان له مثل هذا الموقف من الآداب الأجنبية، وإن كانت صلته بأدب أوروبا وأمريكا وقفت عند حدود المشاهد السينمائية منذ ضعف بصره عن كثرة القراءة، ومثال شوقي كانت تكفيه اللمحة الدالة، فكانت المناظر السينمائية تغنيه عن قراءة مختلف الأقاليم.

(١) ومع ذلك فقد بالغ الدكتور في الثناء عليه بما لا مزيد فوقه، وتلك لعمري أساس أخلاق العلماء.

كان شوقي من حيث الديباجة في الذروة العالية، وكانت معانيه وموضوعاته من روائع الأدب الجديد، وقد ظلم ناس أنفسهم وظلموا النقد النزيه حين قرروا أن شوقي لم يكن في معانيه من المبدعين، وحسب القراء أن يذكروا أن شوقي كان من أسبق الناس إلى تدوين كبريات الحوادث في مصر والشرق، وسيظل ديوانه من أهم المراجع لتاريخ هذا الجيل.

وقد أبدع شوقي القصص الشعري المسرحي لأول مرة في تاريخ اللغة العربية، ولم يكن أول من حاول هذه المحاولة، ولكنه أول من نجح نجاحاً يذكر ويؤثر، وسينسى التاريخ المحاولات الأولية مع الأسف، ويذكر أن شوقي هو أول من شغل المسارح برواياته الشعرية، وأول من طاف بشعره الممثلون في مختلف الأقطار العربية.

وبعد فهذه كلمة قصيرة في توديع شوقي، وأن نفسي لتطيب كلما ذكرت أني كنت أول ناقد أنصف شوقي في حياته كما يشهد بذلك كتاب (الموازنة بين الشعراء) ويرحم الله من قال:

وطيب نفسي أنني لم أقل له كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢

أسبوع شوقي

يحسن أن يعرف القارئ أولاً قبل كل شيء أننا نكتب ما نكتب في مثل هذا المقام للعبرة والتاريخ، وأن يعلم أن الصحيفة الأدبية في البلاغ مستقلة عن سياسة الجريدة تمام الاستقلال، وجريدة البلاغ تمتاز بأن فيها محررين لا يكتبون سطراً واحداً في النشرات السياسية لأن للجريدة رسالة أدبية بجانب مناحيها السياسية، والسياسة إذا دخلت في باب الأدب أفسدته وحملت القراء على أن ينظروا إليه في حذر واحتياط.

وهذا التمهيد كاف لتوجيه نظر القارئ إلى قيمة هذه النزاهة الأدبية التي نتمنى أن تشيع في جرائد الأحزاب لأن للعقول والأرواح مطالب أدبية وفنية قد تعرض للضياع والتبديد إذا لم يفصل بين الأدب والسياسة بحاجز حصين.

خطر الأدب

أصبحنا بحمد الله نشعر أن للأدب خطراً عظيماً، وصرنا نرى الناس يختلفون في الحياة الأدبية بحرارة لا تقل عن اختلافهم في الحياة السياسية، والجمهور اليوم مشغول بحفظ الأدباء شغلاً لا يقل عن شغله بمراكز الزعماء، وإذا عرفنا أن الأدب صورة الحياة وأنه مقياس لتقدم الأمم ونهوض الشعوب اطمأننا إلى أن في مصر حياة، وأن هذا القلق الروحي والعقلي بشير بحياة مجيدة في السياسة والاجتماع، وهذه الظاهرة الطيبة دليل على أننا خطونا

خطوات سريعة نحو المجد وأنا سنصير بعد قليل شغلا لكثير من المفكرين في الشرق والغرب إذا ثبتنا أقدامنا ومضيئنا نبذع في الآداب والفنون.

عكاظ

اتفق مؤرخو الآداب العربية على أن سوق عكاظ كانت من أسباب التقريب بين لهجات الجاهليين، ونحن اليوم نفعل ما يذكر بأيام عكاظ، فحفلة الأوبرا في هذا الأسبوع كانت ملتقى لكثير من العقول العربية وكان اجتماع العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين والحجازيين (الذين قام خطيبهم في الليلة الثالثة) كان اجتماع كل أولئك مظهرا من ربط الأمم العربية أقوى بكثير مما كان يفعل عكاظ في ربط القبائل الجاهلية.

ومما يجب إثباته للتاريخ أن أدباء الأمم العربية ومفكرها كانوا أسبق إلى هذه الفكرة الطيبة من أدباء المصريين ومفكرهم، وقد كنت أتحدث منذ شهر مع رجل دقيق الفكر من أقطاب الوفد المصري في هذه المسألة فقال:

إن هؤلاء الجيران الفضلاء ما زالوا يلحون في توحيد الأمم العربية حتى صيروا ذلك عقيدة أدبية ستؤتي ثمرها بعد حين والواقع أننا نستأنس حين نجد أخبار مصر مفصلة في صحف الحجاز والشام والعراق، وإن كنا نأسف على ما يقع من التهاون المخجل في تجديد صلاتنا الأدبية ببلاد المغرب مثل طرابلس والجزائر وتونس ومراكش وهي بلاد ما تزال حريصة على وداد مصر بالرغم من تفريط المصريين في إحياء ذلك الوداد.

لحظات مع الضيوف الأعزاء:

رأيت أن أستقبل هؤلاء الضيوف فذهبت للتحية بنفسي في فندق الكونتنتال وكانت لحظات طيبة وإن كنت لم أتمكن إلا من محادثة رجلين اثنين هما فؤاد باشا الخطيب والشيخ مصطفى الغلاييني، أما فؤاد باشا فرجل واضح الفكر طيب القلب وهو من الشعراء المجيدين الذين تفوقوا في وصف الحياة البدوية وله طائفة صالحة من الشعر الحكيم، وله كذلك رواية شعرية عن فتح الأندلس مثلت في كثير من الأقطار العربية وهو واسع الاطلاع عذب الحديث.

وأما الشيخ الغلاييني فرجل من شعراء النحاة يجمع بين القديم والجديد، وله مؤلفات كثيرة في النحو والصرف والبلاغة وقد رأيت أن أسأله عن رأيه في كتاب النحو الواضح فأجاب بأنه كتاب جيد، ولكنه يقسم أبواب النحو على سنين مختلفة، مع أن الأفضل أن يكون الجزء الأول جامعا لأبواب النحو كلها في إيجاز ويكون الجزء الثاني جامعا لها في شيء من التفصيل، ثم يجمعها الجزء الثالث في إسهاب، وأنه هو نفسه يسير في مؤلفاته المدرسية على هذه الطريقة فقلت: هذه كانت طريقة الأزهر القديم وهي طريقة كانت مضمونة النفع في تعليم الطلاب.

خليفة شوقي:

سأل فؤاد باشا الخطيب عنم يخلف شوقي في مصر فأجبناه بأن ذلك يحتاج إلى سنين لأن حياة شوقي كانت من أسباب خمول الشعراء المعاصرين فإن شوقي فعل ما فعل أبو تمام الذي أحمل ثلاثمائة شاعر في حياته، فلننتظر حتى

يستبق الشعراء في ميادين المجد من جديد ثم نظر لمن يكون السبق، وهذا بالطبع لن يمر في شهر أو شهرين، على أن الخلافة في الشعر أصبحت سنة لا تلاثم سنن العصر الحديث، فليظل كل شاعر خليفة نفسه إن شاء، إلى أن يوجد بينهم من يملك ما كان يملك شوقي من المال والفراغ والعبقرية.. فإن هذه الثلاثة مجتمعة هي التي تمكن الشاعر من الإمارة أما الشعراء الصعاليك - والصعلوك كلمة مدح وهي تقابل ما نسميه اليوم باللص الشريف هؤلاء الصعاليك- الذين يجمعون بين الفقر والشرف ليس لهم أن يتساموا إلى إمارة الشعر لأن غنى القلوب أضعف سلطانا من فقر الجيوب، وكيف تنتظر أن يصير الشاعر أميرا في أمته وهو ليس بأمير في بيته؟

إن أكثر شعرائنا وأدبائنا يكدحون ليعيشوا، فهم بالطبع أعجز من أن ينهضوا بتكاليف المجد المجلوب.

ولإمارة الشعر تكاليف أهمها ترضية النقاد وكبح أقلام المتحاملين منهم ببعض الهدايا والولائم على نحو ما كان يفعل شوقي رحمه الله وهذه أُنقال تقصم ظهور كثير من شعرائنا الفقراء الذين يفنون أطيب أوقاتهم للسعي في طلب الرزق، فليتغنوا إن شاءوا بما تغنى به حافظ إبراهيم في ليالي سطيح:

ليس الخمول بعمار	على امرئ ذي جلال
فليلية القدر تحفى	وتلك خير الليالي

فكاهات الحفلة:

لم تمض حفلة الأوبرا بدون أن نظفر منها بكثير من ألوان الفكاهات..
فلنذكر من ذلك شيئاً قليلاً:

١- طلب مني عند دخول المسرح أن أترك عصاي في مكتب الأمانات
فتركتها في أسف لأنها عصا شعرية قدمت إلي هدية من أحد عشاق اللوار.

وكنت أحب أن أرفعها في ختام كل قصيدة إذ كانت بذكرياتها أجمل ما يجيا
به الشعراء، ثم اتفق أن اصطدمت بالأستاذ سعد اللبان على المسرح اصطداماً
عنيفاً فالتصمت عصاي فلم أجدها، فتذكرت في الحال أن حجز العصا في
مكتب الأمانات لم يكن إلا دسيسة وزارية.

٢- خطب الأستاذ وهيب بك دوس فأطال حتى أمل بعض الحاضرين
وكان بجانب أديب لا يعرفه فسأل عن اسمه فقلت: هو الأستاذ وهيب دوس
المحامي فقال الأديب: يعذر في إطالته لأنه حماية! يريد أنه شقيق الوزير توفيق
باشا دوس.

٣- كان الأستاذ السكندري يعرب اسم شوقي فينونه رفعا ونصبا وجرا
فيقول مثلا: ولكن شوقيا، فأظهرت ضجري من إعراب الأعلام فقال الأستاذ
برادة: أراد أن يعربه فنكره.

٤- كانت هناك لحظة استراحة تصافح فيها الأصدقاء من الحاضرين فسمعت الأستاذ أحمد والي الجندي يقول للأستاذ محمد الهياوي: العاقبة عندك يا أستاذ إن شاء الله تموت وتحتفل الحكومة بذكراك.

فقال الهياوي: أقبل هذا مع السرور على شرط أن لا يطيل الخطاب إلى حد الإملال.

٥- لوحظ أن معالي حلمي باشا عيسى جذب أحد الخطباء من ثوبه برفق ليختصر فقال أحد الحاضرين: (شده من خطبته) ولا تشده من ذيله.

٦- كان مقررا أن تنتهي حفلة الأوبرا في الساعة الثامنة ولكنها طالت جدا وكان الحاضرون يفكرون في طريق الخلاص، فقال أحدهم: (ينبغي أن نوزع على الخطباء موعد العشاء في الكونتنتال).

٧- كانت خطبة الدكتور منصور فهمي مختصرة جدا فحمد له الناس ذلك الذوق فلما أطل بعده الخطباء وأملوا اقترح بعضهم أن يهتف الحاضرون (ليحيا الدكتور منصور ليفهم الخطباء أن البلاغة هي الإيجاز).

٨- سمعت أحد الحاضرين يقول: لو أن وزير المعارف كان ينتظر هذا التطويل لأجل هذه الحفلة إلى سهرات رمضان!
وفي هذا كفاية فذلك موضوع لو أظنناه طال.

قهوة بسكر

من عادات أهل الريف أن لا يقدموا غير القهوة في المآتم وقد يمتنع المعزون عن تناول القهوة بتاتا، إذا كان الميت شابا ولكنهم يقدمون القهوة الحلوة إذا كان الميت شيخا هرما ترك بعده أولادا نجباء.

وقد قرأت في الصحف أن الأستاذ عبد العزيز البشري دعا وفود الأقطار العربية إلى حفلة عشاء في داره يغني فيها الموسيقار صالح عبد الحي فتذكرت أنه أراد أن يقدم لهم «قهوة بسكر (زيادة)».

ومعنى هذا أنه غض النظر عن فكرة التعزية فهل نستطيع أن نقترح أن يقيم الأستاذ محمد عبد الوهاب بدوره حفلة لأولئك الضيوف.

أنا أقدم هذه الملاحظة أيضا للتاريخ، وليس فيها ما يعتذر منه، فإنها تذكر بمن قال:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة يروي عظامي بعد موتي عروقتها
ولا تدفني في الفلاة فإني أخاف إذا مت أي لا أذوقها

وتذكر أيضا بها أوصى به عمر الخيام أصدقاءه أن يصبوا على قبره دنان

الصهباء!

أين الجنس اللطيف:

روعت التقاليد في هذه الحفلة لشوقي فلم يحضرها أحد من الجنس اللطيف لأن معالي رئيس الحفلة لا يرى ذلك، وسمح فقط لقريبات الشاعر أن يحضرن في مقصورة مسدولة الستائر.

وفي ظني أن شوقي كان يتمنى أن يكون الاحتفال بذكراه جامعا لأسراب الجنس اللطيف حتى لا يحرم روحه من نغمات (ليلي) و(كليوباترة) و(أميرة الأندلس).

محمد عبد الوهاب

من غرائب المصادفات أن اسم محمد عبد الوهاب لم يرد على لسان أحد من الخطباء والشعراء الذين اجتمعوا لتأبين شوقي، مع أن صلة شوقي بذلك الموسيقى كانت نعمة على الأدب والفن، فبفضل شوقي غنمنا محمد عبد الوهاب وبفضل عبد الوهاب غنمنا بقية الكأس من حياة شوقي.

التربية والتعليم

غفل منظمو الحفلة وشعراؤنا عن جانب مهم من شعر شوقي وهو الجانب الخاص بالتربية والتعليم، وقد علمت أن الأستاذ سعد اللبان أغفل هذا الباب

عامدا ليمكنني من كتابة الفصل الذي قدمته لمجلة^(١) التربية الحديثة وهو فضل يذكر للأستاذ اللبان.

أداب صحفية

لاحظت أن الأستاذ أنطون الجميل نشر خطبته في ذيل الأهرام ونشر الخطب الأخرى في الصدر وذلك باب من دقة الذوق، ولاحظت كذلك أنه نشر القصائد التي سبقته إلى نشرها جريدة البلاغ فعرفت أنه يرى الأدب أعلى وأنفس من أن يبذله التكرار فليقبل منا خالص الثناء.

أغلاط

جاء في خطبة الأستاذ أحمد زكي باشا أن شوقي امتاز بميزة عظيمة هي الشرح الذي وصفه خاتمة المحدثين الشيخ سليم البشري لقصيدة نهج البردة وهذا خطأ والصواب أن الشرح للشيخ عبد العزيز البشري وكتب اسم الشيخ سليم رعاية لمركزه وكان يومئذ شيخ الأزهر الشريف.

وجاء في خطبته أيضا أن البردة عورضت بمئات ومئات من القصائد ومعنى (المئات) والمئات أنها عورضت على الأقل بنحو خمسمائة قصيدة، وذلك غلو غير مقبول ولعل سيادة زكي باشا يتفضل فيذكر لنا خمسين قصيدة لا خمسمائة مما عورض به البوصيري، لأنني مشغول في هذه الأيام بدراسة المدائح

(١) لم نجد هذا المقال في مجلة التربية الحديثة، ولكننا وجدناه في البلاغ وهو منشور في هذا الكتاب تحت عنوان (التربية والتعليم في شعر شوقي).

النبوية، إذ كانت تشغل فصلا مهما من كتابي عن أثر التصوف في الأدب والأخلاق وأنا أنتظر جواب الباشا المفضل.

الحقد السياسي

جاء في خطبة الأمير مصطفى الشهابي لوم عنيف على نظم شوقي في وصف البسفور والمغاني التركية وضرب مثلا بما نظم فكتور هيجو، والخطأ واضح في النظرية والاستشهاد فمن حق الشاعر أن يصف ما يطرب له ولو كان في بلاد الأعداء فكيف يعاب على شوقي أنه أشاد بالبوسفور والمغاني التركية؟

أيجوز التغني بملاعب لندرة وباريس وبرلين ولا يجوز التغني بحدائق الأستانة؟

هذا عجيب!

أخوك في الدين

أرسل معالي وزير المعارف إلى كبير شعراء تركيا ينعى شوقي فأجابه الشاعر بخطاب نفيس جاء في ختامه:

(وتقبل تحية أخيك في الدين).

إذن لا يزال في تركيا ناس يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

شوقي أمام التاريخ

شخصيته وحكمته المطبوعة^(١)

اتفق لي أن أكتب فصولا مطولة عن شعر شوقي في سنة ١٩٢٥ وهي فصول منزهة عن الغرض يجدها القارئ في كتاب (الموازنة بين الشعراء) وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين. ويعز علي أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية، وكان شوقي عودهم التطلع إلى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل! وكانوا كلما احتاجوا إلى (بره ومعروفه) طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه، فكان يخرس ألسنتهم، ويقصف أقلامهم، بالهدايا والهبات. وقد ظن أولئك المساكين أني أكتب عن شعر شوقي لنفس الغرض الذي يسوقهم ويحفزهم إلى الكتابة عن شعره، فكانوا يتقدمون إلي ناصحين، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه في هذه الكلمة الطريفة: (إن شوقي لا يحترم من ينصفه!).

والاحترام الذي يفهمونه هو السخاء والكرم والجود. وهذا النوع من الاحترام يبدو لعيني بغضا ممقوتا لا يتطلع إليه إلا سفلة الناس. وليت شعري كيف يحتاج الرجل إلى هبات الأغنياء ورغيف واحد يكفيه يوما وليلة، وليس بطن الإنسان إلا وعاء حقيرا لا يستحق أن تذلل في سبيل ملئه النفوس! ولكن

(١) أبو لولو ديسمبر سنة ١٩٣٢.

هذا هو الذي وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجه، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبي أشبع تشويهه، وأن يقلبوا الحقائق الأدبية قلبا كريبا، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذا بغرض دفين.

وقد عرفت بالتجربة أن شوقي كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه، وتجلت لي حقيقة ذلك في سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له في داره حفلة استقبال، كنت يومئذ مدرسا بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور في منزله ولم يدعني، لأن الدكتور طه كان موظفا في الدرجة الثانية وكنت موظفا في الدرجة السادسة، وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التي يفهمها جيدا أمير الشعراء الذي عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات! ثم وقع يومئذ ما هو أشبع من ذلك: فقد كان دعا المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الأستاذ لكلمة ندت في محاضراته بالجامعة المصرية، فكتب إليه شوقي ينبئه بأنه (سحب الدعوة) وأنه يرجوه أن يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود (كرمة ابن هانئ) على أيامها وأيامه تحية وسلام!

وكانت هذه أيضا فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقي: فإن تلك الهفوة لم تنقص تقديري لشوقي، شوقي الشاعر، أما شوقي الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة، وعدت لا أقبله حين ألقاه مصادفة إلا بنفس الزاهد العيوف، وقد اتفق أن تلاقينا عفوا في بهو الكونتنتال في ربيع سنة ١٩٢٩ وكنت مع الدكتور

منصور فهمي، فسألني شوقي عن انصرافي عنه، فأجبتة بكلمات فيها جفاء، فالتفت إلي الدكتور منصور وقال: إن شوقي بك والد الجميع. وأنشد:

نميل على جوانبه كأننا نميل إذا نميل على أبنينا
نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منها كرما ولينا

ثم توالى الأيام، وكانت تزيد في يقيننا بأن شوقي الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقي الذي يعرفه الناس كإنسان اجتماعي يخطئ ويصيب بين الحق والواجب، وكان أن رأيت له لآخر مرة في مسرح حديقة الأزبكية يوم اجتمعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا، وأسرت إليه أحبيته، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه، وكدت أصرخ في وجهه: قبل يد الشاعر أيها الجاحد فقد شرف قدرك بشعره! وكانت عاطفة طبيعية: فقد كان شوقي في ذلك اليوم وهو محطم مهودود يبدو لعيني في وقار الصديقين. ولما علمت أنه سيقوم حفلة شاي في داره لأعضاء (جمعية أبولو) خطر ببالي أن أسعى لحضور تلك الحفلة، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء، ولكنني رفضت أن أذهب بدون دعوة، ثم كان ما مر بالبال صحيحا، وكانت آخر مرة يستقبل فيها شوقي رجال الأدب في داره فيا حسرتا على ما ضيعت من تلك اللحظات الطيبات!

لم أسئ يوما إلى شوقي الشاعر، والحمد لله، وإن كنت بعث حظي من شوقي الصديق، وقد عانيت في سبيل إعجابي بشعره نكبات عديدة، فإن ناسا كانوا يودون لو هدموه، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل، وسلكوا إلى هدمه شتى

الشعاب، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية، وكانت لهم في ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان، والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق!

الخلق لله، والوطنية لله، كما أن الدين لله، فلنترك لشوقي أخلاقه ووطنيته، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة.

الحكمة في شعر شوقي

أول ظاهرة واضحة في شعر شوقي هي التماس الشاعر لغرائب الحكمة في جميع القصائد والمقطوعات، وقد آثرت أن أقف هذا المقال التقديري على تلك الظاهرة البارزة في شعره وهي ليست ملحوظة في شعر الكهولة وحده، وإنما ترجع إلى ميل في نفس الشاعر منذ صباه، ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيماً، ولكن الأجل أن ترد الحكمة عفواً بلا تكلف ولا افتعال، وقد وقع لشوقي أن عق أسلوب القصص أحياناً كثيرة في سبيل الحكمة، وغالب سياق القصائد رغبة في تدوين الكلام الحكيم، من ذلك قصيدته الهمزية التي أنشأها منذ نحو ثلاثين عاماً لتلقى في المؤتمر الشرقي الدولي الذي انعقد في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤، وهي قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم، وجرى القصص فيها مسلسلًا لم يعقه إلا التنقل إلى الحكمة التي كانت تظرد أحياناً إلى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفي أن تقع في شطر بيت لتكون

لفتة طريفة لا ينقطع بها سياق الحديث، مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون، فقد وصل به هذه الأبيات:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها	فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر	سرفكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودو	ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائر مثلما جا	روا وللدهر مثلهم أهواء

ثم عاد إلى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتا عن رمسيس وسيزوسنريس الذي وصفه بالتواضع وكره الكبرياء، ودعاه هذا إلى إلقاء الحكمة فقال:

يولد السيد المتوج غضا	ظهرته في مهدها النعساء
لم يغيره يوم ميلاده بؤ	س ولا ناله وليدا شقاء
فإذا ما الملقون تولو	ه تولى طباعه الخيلاء
وسرى في فؤاده زخرف القو	ل يراه مستعذبا وهو داء
فإذا ابيض الهديل غراب	وإذا أبلج الصباح مساء

وقد تطرد الحكمة عند شوقي لغرض مقصود فتأتي رائعة: مثال هذا قصيدته في مشروع ملنر، وهي قصيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن. وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقي إلى الدعوة له، فكتبت ألومه في جريدة (المحروسة)، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذاً بإلحاح بعض الناس، والقصيدة دعوة إلى الرضا بالضعف، ولكنها من أظرف ما ينوم به الضعفاء، ولم أجد في حياتي كلمة باطل صيغت في مثل هذا الأسلوب الطريف:

وانتبه الغافل من لعبه
 في هيئة الليث إلى غربه
 ملك بيننا وعلى قلبه
 وندخل العصر إلى جنبه
 ونقطع السداخل في حربته
 يقسمه بالعدل في شربه
 حق القرى والناس في عذبه
 ما ساء أو ما سر من غبه
 بحاتم الجود ولا كعبه
 على قنا الحق ولا قضبه
 يعجز بالشدة من غصبه
 في الصبر للسدر وفي عتبه
 إذا هي اضطرت إلى شربه
 من ليس بالعاجز عن قلبه
 زمانكم لم يتقيد به
 كالصبح للناظر في قربه
 ما دام هذا الغيب في حجه

قد صارت الحال إلى جدها
 الليث والعالم من شرقه
 قضى بأن نبني على نابه
 ونبلغ المجد على عينه
 ونصل النازل في سلمه
 ونصرف النيل إلى رأيه
 يبيع أو يحمي على قدرة
 أمر عليكم أو لكم في غد
 لا تستقلوه فما دهركم
 نسمع بالحق ولم نطلع
 ينال باللين الفتى بعض ما
 فإن أنستم فليكن أنسكم
 وفي احتشام الأسد دون القذى
 قد أسقط الطفرة في ملكه
 يارب قيّد لا تجبونه
 ومطلب في الظن مستبعد
 واليأس لا يجمّل من مؤمن

أليس يرى القارئ أن هذا باطل صور في أبرع أسلوب؟ ومع هذا فالشاعر حكيم في طبعه حتى حين يتأقن في تصوير الأباطيل، فإننا مهما رميناه بالدعوة إلى الضعف واللين لا نستطيع أن ننكر أنه أحكم الناس حين قال:

يأرب قيّد لا تجبونه زمانكم لم يتقيد به

فالزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الإحياء كما بدأ يفعل في معاهدة فرساي.

وكان يطيب لشوقي أحيانا أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل كأنها كانت الحكمة غرضه المقصود، وأكثر ما كان يقع ذلك في قصائد الرثاء، ومن أوضح الشواهد في هذا ما ابتدأ به قصيدته في كارنارفون:

في الموت ما أعيأ وفي أسبابه	كل امرئ رهن بطي كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره	عند اللقاء كمن يموت بناه
إن نام عنك فكل طب نافع	أو لم ينم فالطب من أذنايه
داء النفوس وكل داء قبله	هم نسين مجيئه بذهابه
النفس حرب الموت إلا أنها	أتت الحياة وشغلها من بابه
تسع الحياة على طويل بلائها	وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل الساري وراحة رائح	كشر النهار عليه في إتعابه
وشقاء هذي الروح من آلامها	ودواء هذا الجسم من أوصابه!

تلك ثمانية أبيات في الحكمة يجد بعدها القارئ أحد عشر بيتا حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم، وهذه المقدمة الطويلة تبدو لنا مستثقلة بعض الشيء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال، ولكننا نقف خاشعين حين نصل إلى قوله في وصف ذلك العالم المجهول الذي يسمى عالم البقاء:

يا صاحب الأخرى بلغت محلة	هي من أخي الدنيا مناخ ركابه
نزل أفاق بجانيه من الهوى	من لا يفيق وجد من تلعبه
نام العدو لديه عن أحقاد	وسلا الصديق به هوى أحبابه

الراحة الكبرى ملاك أديمه والسلوة الطولى قوام ترابه

وللقارئ أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل في وصف ما بعد الموت من قرار وسكون.

ولشوقي قصائد دعت إليها ظروف وقتية، ضمنها كذلك حكما وقتية، فقصيدته في العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك، واسمع كيف يقول:

أيها الجمع لقد صر	ت ممن المجلس قابا
فكن الحر اختيارا	وكن الحر انتخابا
إن للقوم لعينا	ليس تالوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا	من عن العمال نابا؟
ليس بالأمر جسديرا	كل ممن ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قد	م جاهنا وانتسابا
أو رأى أمية فاختر	سلب الجهل اختلابا

والقوم الذي يعينهم شوقي هم الإنجليز، والعمال مدعون أن يراقبوا الإنجليز حين ينتخبون النواب، والمطلوب أن ينتخبوا الدكتور محبوب ثابت ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت إليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول:

إن لي نصحا إليكم	إن أذنتم وعتابا
في زمان غبي صح	فيه أو تغيبا
أين أنتم من حدود	خلدوا هذا الترابا

قلدوه الأثر المعجز والفن العجبا وكسوه أبد الدهر من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد إن للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جنابا أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا؟
بعد ما كانت سماء للصناعات وغاياتها؟

وبساطة هذا الشعر من سمات جماله وخصوصا إذا لاحظنا أنه يخاطب العمال، وخطابه يفرض اليسر واللين في العرض والأداء.

وليس من الغلو في شيء أن نصرح بأننا معجبون أفتن الإعجاب بقوله في هذه القصيدة يوصي بالادخار اتقاء لحوادث الأيام:

إنما العاقل من يجعل للدهر حسابا
فأذكروا يسوم مشيب فيه تكون الشبابا
إن للسن لها حين تلعسو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشد سيب والضعف نصابا
واذكروا في الصحة الدا إذا ما السقم نابا

وقد تبدو هذه الأبيات عند من لا يتأمل فيما تشير إليه من أعقاب الشيخوخة ذات الويل والعذاب، ولنذكر دائما أنه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم معدمون.

ولا ينبغي أن تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة في حكمة شوقي: فإن الرجل فيما يظهر من شعره ومن أخلاقه الحيوية كان مأخوذا بالحرص على طيبات العيش، وكان مشغوبا بمعاودة التفكير في

الأخلاق المعاشية، والأخلاق المعاشية هذه كلمة نراها أنسب ما يصور به
حرص شوقي على أسباب الحياة، وانظر قوله في النحل:

مخلوقة ضعیفة	من خلق مصوره
يا أم اقل ملكها	وما أجل خطره
قف سائل النحل به	بأي عقل دبره
يجيبك بالأخلاق وهي	كالعقول جوهره
تغني قوی الأخلاق ما	تغني القوی المفكره
ويرفع الله بها	من شاء حتى الحشره!

وليتأمل القارئ في قوله (من خلق مصوره) ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة
كالعقول، يريد أنها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علام الغيوب، وهذا
معنى لا يدرك إلا بدقة التأمل، فإن الخلق الصالح خلق العيش والحياة من
الأسرار الخفية. فكم ناس يوفقون في حياتهم المعاشية، وليست هناك أسباب
ظاهرة لما رزقوا من توفيق، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق
نفسية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق وإن كان أصحابها في ظاهر الأمر من
العابثين الماجنين، ولينظر القارئ أيضا قوله:

أليس في مملكة	النحل لقوم تبصره؟
ملك بناه أهله	بهممة ومجدره
لو التمسست فيه بطا	ل اليديدين لم تدره
تقتل أو تنفسي الكسا	لى فيه غير منذره

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الإنسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع إلى مهادة أهل البطالة والفراغ:

لنتقل بعد هذا إلى الحكمة الفطرية في شعر شوقي، ونريد بها الحكمة التي تقع في ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال، وشواهد ذلك كثيرة: ومنها قوله يخاطب مهتتا بالعيد:

وأنت خلقت من خير طباعا	أمثلك يمنع الأوطان خيرا
توفيتها المحبة والدفعا	شجاعا كنت في يوم عصب
وقدما زين الحلم الشجاعا	جنحت إلى السلام فكان حلما
تورط في حوادثها اندفاعا	ومن صحب الحياة بغير عقل

فإن البيت الأخير وقع موقعا طبيعيا لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب القول الحكيم.

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية، ولنقرأ هذه الأبيات:

يا ساكن القناع أدرك ساكن الأجم	رمى القضاء بعيني جوذر أسدا
يا ورح جنبك بالسهم المصيب رمي	لما رنا حدثني السنفس قائلة
جرح الأحبة عندي غير ذي ألم	جحدتها وكنمت السهم في كبدي
إذا رزقت التماس العذر في الشميم	رزقت أسمح ما في الناس من خلق
لوشفك الوجد لم تعذل ولم تلم	يا لائم في هواه والهوى قدر
ورب متصت والقلب في صمم	لقد أنلتك أذنا غير واعية

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة، وأرقها عندي وأوجزها
قوله:

(والهوى قدر). وقد حدثت الدكتور طه حسين عنها مرة فابتسم وقال:
(وعد مكتوب علي ومقدر علي الجبين).

ولنقرأ قوله في وصف الدنيا:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة
يفنى الزمان ويبقى من إساءتها
لا تخفلي بجناها أو جنايتها

وقوله في فخار الأصل بالفرع:
قد أخطأ النجم ما نالت أبوته
نموا إليه فزادوا في العلا شرفا

وقوله في شمائل الرسول:

محببة لرسول الله أشربها
إن الشمائل إن رقت يكاد بها

وقوله في صاحب البردة:

مديحه فيك حب خالص وهوى
الله يشهد أني لا أعارضه

وصادق الحب يملي صادق الكلم
من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين، ومن يغبط وليك لا يندم ولا يلم

وقوله في يتم النبي:

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتيم

وقوله في المفاضلة بين محمد وعيسى:

أخوك عيسى دعاً ميثاقاً له وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

والموت جهل فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

وقوله في حرب من لم يغن في تقويمهم السلم:

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

وقوله في فضل الحرب:

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم والحرب أس نظام الكون والأمم

لولا له نر للدولت في زمن ما طال من عمد أو قر من دعم

تلك الشواهد تترى كل آونة في الأعصر الغر لا في الأعصر الدم

بالأمس مالت عروش واعتلت سرر لولا القذائف لم تشلم ولم تصم

والحكمة هي قوله: (والحرب أس نظام الكون والأمم) وما بعد هذا

الشرط جرى مجرى الشرح والتقرير، وقوله في فضل العدل على القوة:

واترك رعمسيس إن الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

ويطول القول لو مضينا نستقصي ما اتفق لشوقي من روائع الحكمة
القطرية وإنما لتقع له سائغة مستطابة كالورد النмир، وانظر قوله يخاطب من
شيدوا قبر نابليون:

حصنوا ما شتمتم موتاكمو هل وراء الموت من حصن حصين

وقوله في ذكرى دنشواي:

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام

وقوله في صلة مصر بالسودان:

فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها

وقد جرى الشاعر في هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية، فليتصفحها
القارئ ليرى صحة ما نقول.

وبعد عرض هذه النماذج في صور الحكمة ومواقعها في شعر شوقي يحسن
بنا أن نقرر أن ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاربه أكثر مما استقاها من
مطالعاته: فقد عاش زمنا عيشة محرجة مضجرة لا يعرفها إلا من ابتلي بمثلها أو
بما يقاربها وما ظن القارئ بمن يعاشر الملوك ويذوق ما في كئوس السياسة من
علقم وصاب؟ لهذا نراه صادقا غير متكلف حين يقول:

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى تبدل كل أونة إهابا
وأن الرقط أيقظ هاجعات وأترع في ظلال السم نابا
وبمن عجب تشيب عاشقها وتفنيهم وما برحت كعابا

لبست بها فأبليت الثيابا
ولي ضحك الليب إذا تغابى
وذقت بكأسها شهدا وصابا

فمن يغتر بالدنيا فإني
لهما ضحك القيان إلى غبي
جنت بروضها وردا وشوكا

obekanda.com

التربية والتعليم في شعر شوقي (١)

تمهيد:

لم يكن شوقي معلما في مدرسة أولية، أو مدرسا في مدرسة ثانوية، أو أستاذا في مدرسة عالية وما أحسبه شغل نفسه بالتعليم شغلا جديا. وفي هذا ما يكفي لأن يعرف القارئ أن آراء ذلك الشاعر في التربية والتعليم لم تكن من الآراء المصبوغة بصفة البحث المنظم، بل يمكن القول بأنها خلت من صبغة القصد، أي أن الشاعر لم يرد بها أن يكون مربيا أو معلما، وإنما اتفق له أن يتحدث في شئون تعليمية دعت إليها عاطفته كأب له أبناء يتعلمون، ومواطن يرى في غدوه ورواحه صبية وشبابا يذهبون إلى المدارس، صديق يرى بعض ما يقاسيه أصدقاءؤه من رجال التعليم.

يضاف إلى هذا أن الرجل كان يتطلع إلى مستقبل الأمة في حياتها التهذيبية فكان يسوقه ذلك إلى الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية، وكان له في أكثر المواقع قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى المربي الحكيم، وإن لم يقصد إلى تحديد شيء من المذاهب والآراء التعليمية: فكان شعره في هذا الباب من عفو الفطرة وقد تجود الفطرة أحيانا بما تعجز عنه عقول الباحثين.

خطاب المطرية إلى سعد باشا

هي قصيدة نظمها شوقي منذ ربع قرن، وقدمها إلى وزير المعارف وكان يومئذ سعد باشا زغلول وفي هذه القصيدة تتكلم المطرية عن رغبتها القوية في إنشاء مدرسة تذكر بمدريستها القديمة التي تعلم فيها بعض فلاسفة اليونان، وهذه القصيدة مجهولة لا يعرفها إلا القليل من أنصار شوقي، لأنها من شعره القديم الذي خلا أكثره من آيات النضج والقوة، ولكنها في نظري غرة من الوجهة التعليمية فلننظر كيف تترفق المطرية في خطاب الوزير سعد زغلول:

يا ناشر العلم بهذي البلاد	وفقت نشر العلم مثل الجهاد
باني صروح المجيد أنت الذي	تبني بيوت العلم في كل ناد
بالعلم ساد الناس في عصرهم	واخترقوا السبع الطبايق الشداد
أطلب المجد ويبغي العلا	قوم لسوق العلم فيهم كساد
نقاد أعمالك مغفل لها	إذا علا الدر غلا الانتقاد
ما أصعب الفعل لمن رامه	وأسهل القول على من أراد
سمعا لشكواي فإن لم تجد	منك قبولا فالشكاوى تعاد
عدلا على ما كان من فضلكم	فانفضل إن وزع بالعدل زاد
أسمع أحيانا وحينما أرى	مدرسة في كل حي تشاد
قدمت قبلي مدنا أو قرى	كنت أنا السيف وكن النجاد
أنا التي كنت سريرا لمن	ساد (كادوارد) زمانا وشاد
قد وحد الخالق في هيكل	من قبل سقراط ومن قبل عاد
وهذب الهند دياناتهم	بكل خاف من رموزي وباد

أوحى من بعد إليه فهاد
أيام تربي مهده والوساد
قرارة العرفان دار الرشاد
يلقون في العلم إليها القياد
وصييتي بالشيب أهل السداد
ويومي (القبة) ذات العهاد
من مصر للخنكا لظلي امتداد
أقسم بالزيتون رب العباد

ومن تلاميذي موسى الذي
وأرضع الحكمة عيسى الهدى
مدرستي كانت حياض النهى
مشايخ اليونان يأتونها
كنان سميهم بصبيانه
ذلك أمسى ما به ربة
أصبحت كالفرديوس في ظلها
لولا حلى زيتوني النضر ما

وليتأمل القارئ سحر الترفق في الأبيات الآتية وقد مثل فيها خوف الآباء
على أطفالهم من عادية قطار السكة الحديدية:

لا نقص الله لهم من عداد
ورب نسل بالندي يستفاد
يجمعهم في الفجر والعصر غاد
ويمنع الجفن لذيذ الرقاد
فكيف أنياب الحديد الحداد
فنظرة منك تنيل المراد
في كرم الراح كصوب العهد
إلا جواد عن أيه الجواد

بني ياسعد كزغب القطا
إن فاتك النسل فأكرم بهم
أنخشي عليهم من أذى رائح
صفيهه يسلبني راحتي
يعقوب من ذئب بكى مشفقا
فانظر رعاك الله في حاجهم
قد بسطوا الكف على أنهم
إن طلب (القسط) فما منهمو

الجامعة المصرية

عرض شوقي للجامعة المصرية في شعره عدة مرات تحدث عنها في رثائه
للمرحوم قاسم أمين فقال:

الله جامعة نهضت بأمرها هي في المشارق مصدر الأنوار
أمنية العقلاء قد ظفروا بها بعد اختلاف حوادث وطواري
لو يعلمون عظيم ما ترجى له خرج الشحيح لها من الدينار
العلم بيني الملك حق بنائه وبه تنال جلائل الأخطار
ولقد يشاد عليه من شمم العلا ما لا يشاهد على القنا الخطار

وهي أبيات جيدة لم يعبها إلا إغفال الشاعر لمهمة الجامعات وإن كان أجمل
ذلك في قوله:

لو يعلمون عظيم ما ترجى له خرج الشحيح لها من الدينار

ولشوقي قصيدة سنينة ألقى يوم وضع الحجر الأساسي للجامعة في
بولاق الدكرور في ربيع سنة ١٩١٤ جرى أكثرها في مدح الخديو السابق ومدح
صاحبة السمو المغفور لها الأميرة فاطمة إسماعيل التي يرجع إليها الفضل في
تكوين الجامعة المصرية ولم يخص شوقي الجامعة ولا فكرة الدراسات العالية
إلا بهذه الأبيات:

ياباني المجد وابن المولعين به انشر ضياء الهدى في طي أرماس
وألقي في أرض منف أس جامعة من نورها تهتدي الدنيا بنبراس
وانفض عن الشرق ياسا كاد يقتله فلا حياة لأقوام مع الياس

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا آس

ولشوقي قصيدة أخيرة في الجامعة ألقى في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ وفي هذه القصيدة مس شوقي بعض الجامعات بتلميح لطيف ولتنظر كيف يقول:

ما هذه الغرف الزواهر كالضحى	الشاشحات كأنها الأعلام
من كل مرفوع العمود منور	كالصبح منصدع به الإظلام
تتحطم الأمية الكبرى على	عرصاته وتمزق الأوهام
هذا البناء الفاطمي مناره	وقواعد الحضارة ودعم
مهدياً للوليد وأيكه	سيرن فيها بلبل وحمم
شرفاته نور السبيل وركنه	للعقريسة منزل ومقام
وملاعب تجري الحظوظ مع الصبا	في ظلهن وتوهب الأقسام
يمشي بها الفتيان هذا ماله	نفس تسوده وذاك عصام

والقصيدة طويلة تنقل فيها الشاعر من غرض إلى غرض إلى أن قال:

قامت ربوع العلم في الوادي فهل	للعقريسة والنبوغ قيام
فهما الحياة وكل دور ثقافة	أو دور تعليم هي الأجسام
ما العلم ما لم يصنعه حقيقة	للطالين ولا البيان كلام

وفي الأبيات الأولى نجد شوقي قد وصف مهمة الجامعات أدق وصف حين قال:

تتحطم الأمية الكبرى على	عرصاته وتمزق الأوهام
-------------------------	----------------------

والأمية الكبرى تعبير جديد وصف به شوقي حياة أنصاف المتعلمين أو أنصاف الجهال، وفي القطعة الثانية بين أن دور الثقافة والتعليم ليست إلا أجساما أما الروح ففي العبقرية والنبوغ وبدونها لا يكون للعلم حقيقة ولا للبيان جمال.

ولا نحب أن نفوت على القارئ الاستمتاع بتلك الصورة الشعرية التي وصف بها شوقي يوم الفراغ من بناء الجامعة المصرية إذ شبهه باليوم الذي استراح فيه بناء الأهرام حين تم البناء:

يا مهرجان العلم حولك فرحة	وعليك من آمال مصر زحام
ما أشبهتك مواسم الوادي ولا	أعياده في الدهر وهي عظام
إلا نهارا في سحابة صبحه	قعد البناء وقامت الأهرام
وأطال (خوفو) من مواكب عزه	فاهتزت الربوات والآكام

الأزهر الشريف:

عرض شوقي للأزهر في شعره غير مرة وأشهر ما قاله فيه رائيته التي نظمها سنة ١٩٢٤ وينبغي أن نذكر أن شوقي كان يضمم أصدق آيات الولاء للثقافة الأزهرية لأنه مدين أثقل الدين لمن اتصل بهم من نوابغ الأزهرين، وقد ذكر الدكتور محمد هيكل في رسالته المطولة التي رثى بها شوقي في جريدة السياسة أنه سأل الشاعر أن يدلّه على أثر عربي يشغله عن الآداب الأوربية فدلّه شوقي على كتاب (الوسيلة) للشيخ حسين المرصفي فلما اطلع الدكتور هيكل على الكتاب عجب ودهش من أن يرى شوقي في قراءة مثل ذلك الكتاب ما يصرف الذهن عن روائع الآداب الأوربية ولو تذكر الدكتور هيكل أن شوقي

كان أزهرى الثقافة لما عجب ولما دهش من أن يشير بمطالعة مثل هذا الكتاب لأن هناك كتباً أدبية لغوية وفقهية تعد من أئمن الذخائر عند من يدركون كيف يتصاول جبايرة العقول، ولكن تلك الكتب مغلقة أشد الإغلاق في وجوه من حرموا من الثقافة الأزهرية، تلك الثقافة القوية التي قامت أصولها على شحذ الذهن وتثقيف العقل من الألف إلى الياء أي من أول يوم يدخل فيه الطالب الأزهر إلى أن يجلس مجلس الأستاذ.

تكلم شوقي عن الأزهر فأثنى على أئمنته ثم التفت فنهى القارئ عن متابعة من ينكرون كل قديم فقال بعد تمهيد وجيز:

واخشع ملياً واقض حق أئمة	طلعوا به زهراً وماجوا أبحراً
كانوا أجل من الملوك جلالة	وأعز سلطاناً وأفخم مظهراً
زمن المخاوف كان فيه جنابهم	حرم الأمان وكان ظلهم الذراً
من كل بحر في الشريعة زاخر	ويريكه الخلق العظيم غضنفرأ
لا تحذ حذو عصابة مفتونة	يجدون كل قديم شيء منكراً
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا	من مات من آبائهم أو عمراً
من كل ماض في القديم وهدمه	وإذا تقدم للبنىة قسراً
وأتى الحضارة بالصناعة رثة	والعلم نزرأ والبيان مثرأ

ثم انتقل الشاعر فخطب الأزهر خطاباً رقيقاً كأنه أنفاس الزهر عند طلوع الصباح.. وسجل فضله في تثقيفه إذ قال:

عين من الفرقان فاض نمرها	وحيا من الفصحى جرى وتحدرأ
ما ضرفني أن ليس أفقك مطلعي	وعلى كواكبها تعلمت السرى

وفي هذه القصيدة عرض الشاعر لمسألة من أدق مسائل التربية والتعليم ذلك بأن الأزهر هو المعهد المصري الوحيد الذي يفتح أبوابه للعميان وللقارئ أن يتأمل طويلا فإن الأعمى أحق الناس بالعطف وقد يكون أهلا لنبوغ عظيم يستره الجهل ويطمسه الإغفال.

وهذا الجانب من التربية الأزهرية جدير بالإعجاب فكم من عميان أطلعهم الأزهر وهم أهدى من المبصرين.

وتأملوا رفق شوقي إذ يقول في خطاب جلالة الملك فؤاد:

نظروا وإحسانا إلى عميانه	وكن المسيح مداويا ومجبرا
والله ما ندري: لعل كفيهم	يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد	غبنا وجل المشتري والمشتري
إن فاتهم من نور وجهك فانت	لم يعدموا لوجوه برك منظرنا
لمسوا يداك كمن يشاهد مزنة	ويد الضرير وراءها عين ترى

انتحار الطلبة

ولم يقف شعر شوقي في التربية والتعليم عند الكلام على دور العلم ومعاهد التثقيف بل اهتم بشئون الطلبة وتحدث عن أزماتهم العقلية والوجدانية ولنصرف النظر عما وضعه لهم من الأغاني المدرسية والأناشيد القومية فإن ذلك يحتاج إلى بحث خاص، ولنكتف بالإشارة إلى رائيته البديعة في انتحار الطلبة ولعل القراء يكفوننا مئونة التنبيه على مواطن الحسن في تلك

القصيدة الرائعة التي يندر مثلها في الأدب الحديث فإن المقام يضيق عن ذلك
وحسبنا أن نعرض عليهم منها هذه الشذرات:

ناشئ في الورد من أيامه	حسبه الله أبا الورد عشر
سدد السهم إلى صدر الصبا	ورماه في حواشيه الغرر
بيد لا تعرف الشر ولا	صلحت إلا لتلهو بالأكر
بسطت للسم والحبل وما	بسطت للكاس يوما والوتر
غفر الله له، ما ضره	لو قضى من لذة العيش الوطر
لم يتمتع من صبا أيامه	ولياليه أصيل وسحر
يتمنى الشيخ منه ساعة	بحجاب السمع أو نور البصر
ليس في الجنة ما يشبهه	خفة في الظل أو طيب قصر
فصبا الخلد كثير دائم	وصبا الدنيا عزيز مختصر

وبعد أبيات طيبة مشتتة عرض الشاعر لأسباب إعجاز الطالب فقال:

لامه الناس وما أظلمهم	وقليل من تغاضى وعذر
ولقد أبلاك عذرا حسنا	مرتدي الأكفان ملقى في الحفر
قال ناس صرعة من قدر	وقديا ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جنة	ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون جفاء راعه	من أب أغلظ قلبا من حجر
وامتحان صععبته وطأة	شدها في العلم أستاذ نكر
لا أرى إلا نظاما فاسدا	فكك العلم وأودى بالأمر
من ضحاياها وما أكثرها	ذلك الكاره في غض العمر
ما رأى في العيش شيئا سره	وأخف العيش ما ساء وسر

نزل العيش فلم ينزل سوى
 ونهار ليس فيه غبطة
 ودروس لم يذلل قطفها
 وشعبة الهام ويبداء الفكر
 وليلل ليس فيهن سمر
 عالم إن نطق المدرس سحر

والقصيدة طويلة وهي على طولها شهية فليعد إليها من شاء في الجزء الأول
 من الشوقيات.

واجب المعلم:

ولشوقي قصيدة مشهورة في واجب المعلم يحفظها التلاميذ لأن أساتذة
 اللغة العربية يسرهم جدا أن يعمل تلاميذهم بقول شوقي:

قم للمعلم وفه التبجيلا
 كاد المعلم أن يكون رسولا
 وليس يهمننا أن نعيد ما حفظه الطلبة من حق المعلم وإنما يهمننا أن نذكر
 رجال التربية بقول شوقي في واجب المعلمين:

أعلمي الوادي وساسة نشته
 والحاملين إذا دعوا ليعلموا
 كانت لنا قدم إليه خفيفة
 حتى رأينا مصر تخطو أصبعا
 تلك الكفور وحشوها أمية
 نجد الذين بنى (المسلة) جدهم
 ربوا على الإنصاف فتیان الحمى
 وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى
 والطابعين شباباه المأمولا
 عبء الأمانة فادحا مستولا
 ورمت بدنلوب فكان الفيلا
 في العلم إن مشت الممالك ميلا
 من عهد خوفو لم تر القنديلا
 لا يحسنون لإبرة تشكيلا
 تجدوهم كهف الحقوق كهولا
 روح العدالة في الشباب ضميلا

جاءت على يده البصائر حولا
ومن الغرور فسمه التضليلا

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى

من البيت إلى المدرسة إلى الحياة

هذا العنوان أصلح من العنوان الذي اختاره شوقي لقصيدته البائية التي

سماها (مصابير الأيام) وهي قصيدة نفيسة جدا افتتحها بهذه الأبيات:

وأحبب بأيامه أحبب
ن عنان الحياة عليهم صبي
ة وأنفاس ریحانها الطيب
سح على مشرق الشمس والمغرب
يروض الجناح ومن أزغب
ن وما علموا خطر المركب
مهارا عراييد في الملعب
ح وليس إذا جد بالطرب

ألا حبذا صحبة المكتب
ويا حبذا صبية يمرحو
كأنهمو بيسات الحيا
يراح ويغدى بهم كالقطيـ
فراخ بأيك فمن ناهض
مقاعدهم من جناح الزما
عصافير عند تهجي الدروس
لهم جرس مطرب في السرا

وكنا نود تحليل هذه القصيدة، ولكن ضاق الوقت والمجال في هذا

الحدیث.

سركات شوقي^(١)

قضى صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي ثلاث سنين وهو مشغول بجمع سركات شوقي، فليسمح لي حضرته بتوجيه نظره إلى سرقة جديدة من سركات شوقي، وهي جديدة من حيث الاستكشاف ولكنها من حيث وقوعها قديمة العهد، وإليه البيان:

كان الناس يعجبون من براعة شوقي في بيان حكمة الجهاد، جهاد الرسول، إذ قال يصابول من وصفوا الرسول بحب الدماء:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذي حسب	تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

وهي أبيات على جانب عظيم من جودة المعنى وقوة الرصف، وكان يظن أن شوقي هو مبدع هذا المعنى، وأنه أول من أفصح عن حكمة الجهاد، ولكن سرقة انفضحت يوم أقيم موسم الشعر في الأسبوع المنصرم، فقد تبين أنه انتهب هذا المعنى من قول الشاعر محمد الأسمر الذي قال:

ودعا إلى الحسنى فلما عرضوا	واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا	مستلثما لاقى الطغاة فروعا
والحق ليس بمعتد لكنه	إن دافعته يد الضلال تدفعا

(١) من كتاب الأسرار والأحاديث صفحة ٢٩٢.

ومن البرية معشر لا يتهي عن غيه حتى يخاف ويفزعا

والأسمر شاعر مجيد، ولشعره أفنان يقطف الناس من ثمارها ما يشتهون. وكان شوقي رحمه الله مغرماً بأخذ معاني الشعراء، فأغارته على معاني الأسمر تدخل فيما أثر عنه من الطغیان، ومهمة النقد الأدبي هي رد الحقوق إلى أصحابها وكشف سرقات الشعراء بعضهم من بعض، فلا يتهمنا أحد بالغص من شوقي والعدوان عليه وهو ميت، فإن الحق لا يبالي بالأحياء ولا الأموات.

قد يقول معترض: ولكن أبيات شوقي جزء من نهج البردة، وهي قصيدة نظمها شوقي في سنة ١٣٢٧هـ ونحن اليوم في سنة ١٣٥٥هـ أي أنه نظمها منذ نحو ثمانية وعشرين عاماً، فكيف يصح اتهامه بالسرقة من الأسمر؟

ونجيب بأن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر رجل عجوز جداً، بالرغم من تصايبه، وقصيدته التي ألقاها في موسم الشعر نظمها منذ أكثر من ثلث قرن وألقاها في معهد دمياط، ونشرها في مجلة (الأمانة) واطلع عليها شوقي فانتهب منها ما شاء.

ولكن لا بد مع هذا من إنصاف شوقي الذي لا يملك الدفاع عن نفسه بعد أن أسكته الموت، وإنصافه سهل: فقد نص القدماء على أن السرقة لا تعاب دائماً، وإنما تعاب حين يسوء الأخذ، أي حين يكون المعنى المسروق ورد في صورة أقل جمالا من الأصل، وتقبل السرقة حين يلطف الأخذ، أي حين يصور المعنى المسروق بصورة أبرع من الأصل، وهذا ما وقع لشوقي: فإن أبياته أجمل

من أبيات الأسمر، وهي كذلك أروع وأرشق، وحسب الأسمر من الفوز أنه
كان السابق ولم يكن المسبوق!

أكتب هذا وأنا أعرف أن أنصار شوقي ستضيق صدورهم بما أقول، ولكن
لا بأس فقد احتملنا كثيرا من المكاره في سبيل الحق، وعند الله لا عند الناس
حسن الجزاء^(١).

٢٦ يونيو سنة ١٩٣٦

(١) لم يفتن الأستاذ سلامة موسى إلى جوهر الدعابة في هذه الكلمة فنقلها إلى (المجلة الجديدة)
شاهدا على سرقات شوقي!

لمحات من حياة شوقي^(١)

سيداتى سادتى:

تفضلت محطة الإذاعة فدعتني للاشتراك في إحياء ذكرى أمير الشعراء.

وقد نظرت فرأيت الكلام على شوقي كثر جدا، وأنا نفسي كتبت في نقد شعره كثيرا، وأخشى أن أقع في الحديث المعاد.

فلم يبق إلا أن أقدم إليكم بعض الصور من حياة ذلك الشاعر العظيم.

كانت شهرة شوقي قد بلغت مبلغا عظيما قبل الحرب العالمية^(٢)، ولكن الجمهور كان هواه مع منافسه الخطير حافظ إبراهيم، لأن حافظا كان شاعر الوطنية، وكان من السابقين إلى محاربة الاحتلال، وكان شوقي كذلك شاعرا وطنيا، ولكن مركزه الرسمي في معية سمو الخديو عباس كان يحول بينه وبين الشجاعة التي امتاز بها حافظ في محاربة الاحتلال.

ثم وقع حادث لم يكن في الحسبان، وهو عزل سمو الخديو عباس عن عرش مصر بسبب انضمامه إلى تركيا في الحرب العالمية الماضية.

وفي تلك اللحظة الرهيبة تقدم حافظ إبراهيم فهنا السلطان حسين بالعرش مع جماعة من الشعراء، ودعاه إلى الثقة بالإنجليز فقال:

(١) محاضرة ألقى في محطة الإذاعة المصرية في أكتوبر سنة ١٩٣٨.

(٢) هذه المحاضرة على صفحات كتاب الأسفار والأحاديث ١٥٦.

ووال الإنجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلوا

وحينئذ تلفت الجمهور ينظر إلى ما يصنع شوقي، وكان تخلف عن تهنئة السلطان حسين. وما هي إلا أيام حتى نشر شوقي لاميته المشهورة التي عطفها الجمهور عليه:

الملك فيكم آل إسماعيلا لازل ملككم يظل النيبلا

وكانت هذه القصيدة شؤما على الشاعر: فقد وقعت فيها أبيات كانت ماثرا للتفسير والتأويل، وهي هذه الأبيات:

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم
جرت الأمور مع القضاء لغاية
أخذت عنانا منه غير عنانها
هل كان ذاك العهد إلا موقفا
يعتز كل ذليل أقوام به
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت
وانقض ملعبه وشاهده على
فأله خير موثلا وكفبلا
وأقرها من يملك التحويلا
سبحانه متصرفا ومديلا
للسلطتين وللبلاد وببلا
وعزيزكم يلقي القياد ذليلا
إلا نتائج بعدها وذبولاً
أن الرواية لم تتم فصولاً

وقد سارت هذه القصيدة في ذلك الحين مسير الأمثال، ولا سيما هذا البيت:

رؤيا علي يا حسين تحققت ما أصدق الأحلام والتأويلا

وكان الناس يعدون ذلك من التورية.

وقد انزعج الإنجليز من كثرة القيل والقال، فأمرُوا بنفي شوقي من البلاد، وكان ذلك النفي فاتحة لعهد جديد من شاعرية شوقي، وابتدأ بقطعته الثرية في وصف قناة السويس، وهي قطعة نادرة النظائر والأشباه.

وكان شوقي يخاف أن ينسأه أهل مصر فهو الذي قال: إن مصر بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين، فأخذ يرسل قصائده بلا انقطاع إلى مجلة عكاظ، وكان لهذه المجلة تأثير شديد في توجيه الأدب الحديث، ولكن الجمهور نسيها بسرعة لأن صاحبها كان أفسد ما بينه وبين أكثر الأدباء من صلوات.

ثم اتفق لشوقي أن ينظم النونية المشهورة، وهي قصيدة رق فيها حنينه إلى مصر والنيل:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا	نأسى لواديك أم نشجى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا	سهها وسل علينا البين سكيننا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع	من الجناحين عي لا يلبينا
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرقنا	إن المصائب يجمعن المصايينا
لم تأل ماءك تخاننا ولا ظمأ	ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ذبلا إلى فنن	وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم	فمن لروحك بالنطس المداويننا

وفي هذه القصيدة مجد مصر والنيل أعظم تمجيد إذ يقول:

لم يجر نهدر إعدار ولا عرس
إلا بأيامنا أو في ليالينا

ولا حوى السعد أطفى في أعتته
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
منا جيادا ولا أرخى مياديننا
ولم يهن بيد التشثيت غالينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل
وقبل القياصر دناها فراعينا
في الأرض إلا على آثار بانينا
به يد الدهر لا بنيان بانينا
كان أهرام مصر حائط نهضت

وختمها بالشوق إلى أمه في حلوان فقال:

كنز بحلوان عند الله نطلبه
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
خير الودائع من خير المؤدينا
لم يأته الشوق إلا من نواحيننا
إذا حملنا لمصر أوله شجنا
لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

وفي أواخر سنة ١٩١٩ فيما أتذكر رجع الشاعر من منفاه، وتلهفت لرؤيته، فرأيته أول مرة في منزل المرحوم عبد اللطيف الصوفاني بك بالحلمية الجديدة.

رأيته رجلا خاليا من الأبهة والوجاهة في ملبسه وهندامه، رجلا قليل الكلام كثير الصمت، لا يدل مظهره على شيء، وإن طبقت شهرته الآفاق.

وقد عرفوني يومئذ إليه، فأنشدته قصائد كثيرة من شعره البليغ، وكان يأنس إلى من يروون أشعاره ويعترفون بعظمته الشعرية.

ثم وقع بعد ذلك أن نظم قصيدة في الدعوة إلى قبول مشروع ملنر سنة ١٩٢٠ وقد قرأت تلك القصيدة وأنا في غيابة الاعتقال، فثار غضبي عليه، وصممت على إيدائه حين أجد السبيل إلى تنسم هواء الحرية.

ولما خرجت من الاعتقال في خريف سنة ١٩٢٠ كانت أول ما كتبت مقالة في نقد شوقي بمناسبة قصيدته في مشروع ملتر ونشرتها في جريدة المحروسة، فغضب الشاعر، وأضاف اسمي إلى خصومه الألداء.

ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وأراد وإليكم أسوق الحديث:

كان شوقي بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد إلا في جريدة الأهرام، وكانت جريدة الأهرام تسميه (أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع).

وقد احتالت جريدة السياسة للتفرد بنشر تلك القصائد الجياد فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيها إلى الجمعية الإسلامية في كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي.

ورأى شوقي أمام هذه الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة بأشعاره، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية.

انتقلت قصائد شوقي من الأهرام إلى السياسة.

فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل، ولم تعد تسميه (أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع) حين تجيء مناسبة لذكر اسمه، وإنما صارت تسميه صاحب العزة أحمد شوقي بك.

وقد تنبعت إلى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده، وكان يومئذ طالبا بمدرسة الطب، فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها في جريدة الصباح.

وقد قرأ شوقي ما كتبت وما كتب صديقي سعيد فطرب ورآنا من النوابع!

وأرسل ابنه حسين إلى صاحب الصباح يدعوننا جميعا للغداء بكرمة ابن هانئ في المطرية، ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعدا بأحد أندية القاهرة، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا إلى المطرية مكرمين معززين. ومعنا الصديق أحمد علام الذي صار فيما بعد مجنون ليل في رواية شوقي.

قد أنسى كل شيء، ولكنني لن أنسى كيف رأيت شوقي في ذلك اليوم.

كان الرجل جاوز الخمسين، ومع ذلك بقيت له ابتسامة عذبة حلوة تفتن وتشوق، وبقيت في وجهه ملامح من الصباحة تظهر في تونين تشرقان في خديه، وانطلق فحدثنا عن خصوماته القديمة مع الزعيم سعد زغلول، وأنشد أبياتا من قصيدته التي نظمها في السخرية من عرابي يوم عاد من منفاه، وعاتبني على المقال الذي نشرته في الهجوم عليه بجريدة المحروسة، وأوضح الأسباب التي دعت لنظم قصيدته في مشروع ملنر قائلا: إنها استجابة لإلحاح المكباتي والنحاس.

وكان ذلك اليوم بداية صداقة حقيقية بيني وبين شوقي.

وزادت الألفة فكنا نلتقي كل يوم بمكتبه في شارع جلال.

ثم شرع في طبع ديوانه سنة ١٩٢٥ فتلطف واقترح أن أكتب مقدمة لذلك الديوان، وقد قبلت بسرور وارتياح.

ورجعت إلى نفسي فرأيت أن كتابة المقدمات توجب التغاضي عن الهفوات، فأرسلت إلى شوقي خطاباً أعتذر فيه عن كتابة مقدمة ديوانه، وعللت الاعتذار بأني وقفت قلمي على النقد الأدبي، وقد أهجم عليه في يوم من الأيام، وذلك لا يأتلف مع الشناء عليه في مقدمة الشوقيات.

وفي مساء اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب لقيت الأستاذ الدكتور طه حسين بمنزله، وكان يومئذ يسكن في مصر الجديدة، فأخبرته بما وقع بيني وبين شوقي، وكان الدكتور طه في ذلك العهد من خصوم شوقي، فتأسف وقال: ليتك حدثتني بذلك قبل أن تكتب اعتذارك، فإن كتابة مقدمة لديوان شوقي شرف عظيم، ولو أنه طلب مني ذلك وأنا من خصومه لسارعت إلى القبول لأن شوقي في رأيي أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي.

وكان اعتذاري عن كتابة مقدمة للشوقيات بداية قطيعة بيني وبين شوقي، مع أنني أنصفته في كتاب (الموازنة بين الشعراء) إنصافاً لم يوفق إليه أحد من النقاد الذين أعجبوا بشعره أشد الإعجاب.

وتعليل غضبه سهل: فقد كان شوقي لا يصدق أن شعره كلام كسائر الكلام فيه المقبول والمردود.

ولم تصرفني هذه القطيعة عن الإيمان بعظمة شوقي.

وزاد في عطفي عليه أنني رأيت رأيت العين يحفر قبره بيديه.

رأيت يسرف إسرافاً شديداً في نظم الشعر، والشعر يأخذ وقوده من الأعصاب والحواس، رأيت ينظم طوائف من الروايات المسرحية في زمن قليل، فعرفت أن الرجل يقدم صدره لسهام الموت.

وآخر مرة رأيت فيها شوقي كانت بمسرح حديقة الأزبكية في ربيع سنة ١٩٣٢، رأيت نحيلاً هزيراً تتموج عيناه، وتضطرب يده.

وقد هممت يومئذ بتقبيل يمينه، ثم تذكرت ما بيني وبينه فانقبض صدري وانصرفت.

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

وعصف الدهر بشاعر النيل حافظ إبراهيم فبكاه شوقي بكاءً من ينتظر الموت.

وكذلك كان صيف سنة ١٩٣٢ عهد شؤم، فقد انطفت فيه حياة شاعرين عظيمين رفعا مصر مكاناً علياً.

سيداتي سادتي

عاش شوقي للشعر ومات بالشعر، ففي الساعة التي كان يجود فيها بروحه كانت الأنسة ملك تطرب الجمهور بتغريدة شوقي:

يا حلوة الوعد ما أنساك ميعادي

وفي صباح اليوم الذي جهز فيه نعشه كان المنشد ينشد قصيدته في مصنع
مشروع القرش، فهتف هاتف: يحيا شوقي!

وصفق الجمهور، وأغرب في الهاتف.

ولكن هاتفاً آخر رفع صوته وقال: يرحم الله شوقي!

وتلفت الجمهور وهو مذعور فعرف أن المقادير انتزعت من بين يديه كنزه الثمين.

سيداتى سادتى

تلکم کلمة وجيزة عن أمير الشعراء، وهي ذكريات حزينة، ومن ذا الذي
لا يحزن ولا يبتس حين يتصور ما تصنع الدنيا بالشعراء؟

وهو رحمه الله قد صور حاله مع دنياه، دنيا الجمال والحب، بالأنشودة
الخالدة التي يغنيها تلميذه وصفيه محمد عبد الوهاب:

بلبل حيران بين الغصون

في سبيل الجمال والحب مصر عك، أيها البلبل الذي قتلته أشواك الأزاهير!

وفي ذمة الله شاعر مصر والعروبة والإسلام والشرق.

في ذمة الله من يقول:

نازعتني إليه في الخلد نفسي

وطني لو شغلت بالخلد عنه

ظماً للسواد من عين شمس

وهفا بالفؤاد من سلسبيل

قصائد الشعراء في تأبين سعد بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ هجعت مصر بوفاة الزعيم سعد زغلول، والتفتت الأمة العربية إلى هذه الفجيرة الدامية، فنظمت القصائد الجياد في الحزن لوفاة ذلك الزعيم العظيم، نظمها شعراء فضلاء..

قصيدة شوقي^(١)

نشرت في صدر الأهرام مع تمهيد نظنه من قلم المرحوم صادق عنبر.

جو القصيدة

لم أكن في مصر يوم مات سعد، وإنما كنت في باريس فلا أعرف أين كان
شوقي يوم مات سعد، فهل كان بمصر؟

في القصيدة ما يشهد بذلك، كأن يقول:

قلت والنفس بسعد مائل فيه آمال بلاد ومناها

وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان بصطاف في البلاد السورية. كأن
يقول:

سائلوا (زحلة) عن أعراسها	هل مشى الناعي عليها فمحاها
عطل المصطاف من سماره	وجلا عن ضفة الوادي دماها
فتح الأبواب ليلا ديرها	وإلى الناقوس قامت يبعثها
صدع البرق الدجى تنشره	أرض سوريا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسري موهنا	كعوادي الثكل في حر سراها
عرض الشك لها فاضطربت	تطأ الأذان همسا والشفاهها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم	كل نفس في وريديها رداها

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٢٥ بتاريخ ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤١.

فهذه الأبيات صريحة في أن الشاعر كان في سوريا حين مات سعد، فكيف
جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيعين؟

إنما صنع ذلك ليتسق له هذا الجو الجميل:

يا عدو القيد لم يلمح له	شبحا في خطبة إلا أباهما
لا يضق ذرعك بالقيد الذي	حز في سوق الأولي وبراهما
يارفاتا مثل ريمان الضحى	كللت عدن به هام رياهما
وبقايا هيكل من كرم	وحياة أترع الأرض حياها
ودع العدل بها أعلامه	وبكت أنظمة الشورى صواها
حضنت نفسك والتفت به	راية كنت من الذل فداها
ضمت الصدر الذي قد ضمها	وتلقى السهم عنها فوقاهما
عجبي فيها ومن قائدها	كيف يحمي الأعزل الشيخ حماها

وهنا يظهر روح القصيدة، فالشاعر يتحدث عن القيد وعدد القيد، ويذكر
الراية التي احتضنت نعش سعد، بعبارة لطيفة تعد من أدق العبارات، إذ جعل
الراية تحس نار الفجيرة، وتشعر بفقد القائد الذي كان يحمي حماها وإن جردته
الأقدار من السلاح.

عيون القصيدة

وفي هذه القصيدة أبيات روائع منها قول الشاعر في فجيرة مصر بدفن

سعد:

مادرت مصر بدفن صبحت أم على البعث أفاقت من كراها

صرخت تحسبها بنت الشرى طلبت من مخلب الموت أباهما

وقوله في جزع مصر لفقد الخطيب الذي أسكرها بسحر بيانه حيناً من
الزمان:

طافت الكأس بساقي أمة من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانها من وتر ساحر رن ملياً فشجاها
أرغن هام به وجدانها وأذان عشقته أذناها
كل يوم خطبة روحية كالمزامير وأنغام لغاها
دهت مصر ولو أن بها فلوات دهت وحش فلاها

وقوله في مصاير الأحياء:

زورق في الدمع يطفو أبداً عرف الضفة إلا ما تلاها
تهلع الشكلي على آثاره فإذا خف بها يوماً شفاها

وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية:

ولد الثورة سعد حرة بحياتي ماجد حرنهاها
ما تمنى غيرها نسلًا ومن يلد الزهراء يزهد في سواها
رقد الثائر إلا ثورة في سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاهم تسيباً فكوت راحتيه وفتيا فرعاها
أعلمتم بعد موسى من يد قذفت في وجه فرعون عصاها
وطئت نادبة صارخة شاه وجه الرق يا قوم وشاها

وقوله في أخلاق سعد:

كنت بالأمس بعيني أراها
 مزحت لم يذهب المزح بهاها
 وينال الود غايات رضاها
 يشبه الصفح وحلم عن عداها
 تأخذ النفس وتجري في هواها
 جد للصب حين فرواها
 للسك الأعزل اختال وتاها

أين من عيني نفسي حرة
 روعة النادي إذا جدت فإن
 يظفر العذر بأقصى سخطها
 ولها صبر على حسادها
 نست أنسي صفحة ضاحكة
 وحديثا كروايات الهوى
 وقناة صعدة لو وهبت

تلك عيون هذه الشوقية وما زاد فهو معان يكررها شوقي في أكثر مرثيه
 وإن كانت تجل عن الابتدال.

أحمد شوقي أمير الشعراء (١)

حضرت الاحتفال بوضع حجر الأساس للجامعة المصرية في نشوة الربيع في سنة ١٩١٤ وكنت بجانب الخديوي عباس ويده (المسطين) ليضع الحجر الأساسي، وهي أول وآخر مرة رأيت فيها الخديوي عباس وأذكر أنه كان ضخم الرأس وأصبح الوجه ومتين البيان.

في تلك الحفلة ألقى قصيدة من شعر شوقي، ألقاها زكي عكاشة وكان رخييم الصوت وكان شوقي حاضرا ولكنني لم أجد من يرشدني إلى مكانه لأسلم عليه.

ثم شبت نار الحرب العالمية الأولى والخديوي عباس في تركيا فمنعه الإنجليز من الرجوع إلى مصر، وأعلنوا أنه مخلوع، وأقاموا مكانه السلطان حسين كامل رحمه الله، أقيم الاحتفال في ميدان عابدين ولم أستطع شهود ذلك الاحتفال ولكنني أتذكر أن جرائد ذلك الوقت قالت: إنه وجه إلى المحتفلين به خطبة وجيزة جاءت فيها الحكمة المصرية (على قد حصيرتك مد رجلحك) وكان يوحى بالاعتدال، وفي اليوم التالي نشرت جريدة الأهرام ثلاث قصائد في تهنئة السلطان حسين: قصيدة أحمد شوقي وقصيدة حافظ إبراهيم وقصيدة أحمد نسيم.

(١) جريدة البلاغ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧.

يقول زكي مبارك: هي مقالة أهديتها إلى الأستاذ محمد عبد القادر حمزة لغرض لا يخفى على قراء البلاغ.

في ذلك الوقت كنت طالبا بالأزهر الشريف وكنت من تلاميذ الشيخ محمد حسين العدوي والد الأستاذ حسين محمد مخلوف.

كان الشيخ يقيم بمنزل فسيح في حارة (أم الغلام) وكنت أقيم بغرفة في منزل قريب من ذلك المنزل وكنت حين أرى باب الشيخ مفتوحا أدخل فأسلم عليه، لأن الشيخ لمحني مرة وأنا سائر بدون التفات فناداني وقال: أعرب هذا البيت يا شيخ زكي:

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم وعلي إذن حرام

فابتسمت وقلت: المشكلة هي أن الفعل (مر) تعدى بنفسه وكان من الذوق أن يتعدى بالباء، وسألاحظ هذا المعنى فأعرج على هذه الدار حين أمر عند الطريق.

مررت على الدار ومعني جريدة الأهرام لأقرأ تلك القصائد على الأستاذ مخلوف وهو آية من آيات الذكاء، وهو الذي صار مفتي الديار المصرية لهذا العصر خلفا للرجل العظيم الشيخ عبد المجيد سليم.

قال الأستاذ: ما رأيك يا شيخ زكي في هذه القصائد؟

فقلت: قصيدة نسيم قصيدة صغيرة وقصيدة حافظ فيها سقطه وطنية، فقد أوصى السلطان حسين فقال:

ووال الإنجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلوا

أما قصيدة شوقي فهي القصيدة.

فقال الشيخ حسنين مخلوف: إن الإنجليز سينفون شوقي لهذه القصيدة،
ففيها حض على الثورة وفيها تعريض بالسلطان حسين.

وقد تحقق رأي الأستاذ فنفي الإنجليز شوقي بعد أسبوعين.

لقد عرف شوقي كيف يختار منفاه، وهو أسبانيا الجنوبية، وهي الأندلس
أقام فيها المسلمون ثمانية قرون وقد استوحى الأطلال فقال ما قال.

وحين أعلنت الهدنة في سنة ١٩١٨ رجع شوقي إلى الوطن ليقول:

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنني قد لقيت بك الشبابا

وفي سنة ١٩١٩ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكان يشرف عليها
المغفور له عبد اللطيف الصوفاني الوكيل الثاني للحزب الوطني، أما الوكيل
الأول فهو علي فهمي كامل الذي مات وهو يؤبن محمد فريد.

وكنت أزور الصوفاني في كل مساء لأدرس معه ما يجب أن أكتب في
الصباح، فقد كان أصيل الرأي وكان آية في صدق الوطنية وكان منزله مأهولا
بالزائرين.

قال لي الشيخ عبد ربه مفتاح وكان رفيقي في الثورة: هل تعرف هذا الرجل
الجالس هناك؟

فقلت: لعله مسكين من المساكين.

فقال: هذا هو أحمد شوقي أمير الشعراء مضيت للتسليم على الشاعر
وقلت: في جيبي ثلاثة جنيهات وأنا أعطيها لك لتشتري بدلة تعفيك من هذه
البدلة المبهذلة، وإن كنت حضرت لاستجداء الصوفاني بك فأنا أغنى من هذا
الصوفاني، وأنا شاعر مثلك، والشعراء كالفقراء يعطف بعضهم على بعض.

ضحك شوقي ضحكة قوية وقال: هذه أول مرة أضحك فيها بقلبي،
وأحب أن أتشرف بمعرفة الأستاذ، فقلت: أنا الشيخ زكي مبارك ملك
الشعراء، وأنت أمير في مملكتي ومن واجبي أن أعطف عليك.

قال شوقي: أنشدني بيتا من شعرك يا أستاذ فأنشدت:

أنت ورد فهب محبك شوكا أتري الورد عاش من غير شوك

فقال: هذا شعر، ثم أنشدته هذا البيت:

لقد صددنا كما صددم فهل ندمتم كما ندمنا

فقال: هذا شعر بديع ثم أنشدته هذا البيت:

أين قلبي وأين آثار قلبي من خفوق يعتاده ووجيب

فقال: هذا معنى كنت أحوم عليه، ولم أصل إليه وأنا أحب أن تدوم الصلة
بيني وبينك يا أستاذ.

كان شوقي يسكت الناقدین المتحاملين بالأموال، وقد كان من أكابر
الأغنياء وكان يجزل العطاء على من يثنون عليه وقد استغرب حين رأني أرفض

عطاياه وقال: لقد أحياني الله فعشت حتى رأيت ناقدا يقول كلمة الحق لوجه الحق.

فقلت: وأنا أيضا عشت حتى رأيت وجه أمير الشعراء فله الحمد وعليه الثناء.

كانت جريدة الأهرام تنشر قصائد شوقي في صدرها وتقول: قال أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع أحمد شوقي، وغارت جريدة السياسة فأعلنت أنها تقدم إلى الجمعية الخيرية الإسلامية خمسين جنيها ثمنا لكل قصيدة ينشرها فيها أمير الشعراء أحمد شوقي.

وبهذا انتقل شوقي من جريدة الأهرام إلى جريدة السياسة.

وجاءت فرصة لقصيدة من قصائد شوقي فقالت جريدة الأهرام: ألقى أحد الناس قصيدة نظمها الشاعر أحمد بك شوقي.

كنت أطبع كتاب البدائع، في مطبعة الصباح فرأيت أن أكتب في المجلة اعتراضها على ما صنعت جريدة الأهرام وشاركني في الاعتراض الدكتور سعيد عبده وكان طالبا مزمنا في مدرسة الطب.

قرأ شوقي مقالتي ومقالة الدكتور سعيد عبده فقال للأستاذ القشاشي بالتليفون: إنه يجب أن يرانا عند اللبان بشارع الألفي عند الظهرية.

حضرنا قبل الميعاد فأحضر اللبان صحنين من اللبن الزبادي ويجانب كل صحن طبق من السكر المدشوش قال الدكتور سعيد: أنا لا أعرف هذا، فقلت:

يظهر أنه يجب أن تخلط الزبادي بهذا السكر المدشوش وخلطت السكر بالزبادي وأكلت حتى شبعت.

وبعد لحظات جاء شاعرنا شوقي فطلب صحنًا من الزبادي بجانبه سكر مدشوش، فوضع السكر على اللبن وأكل، فندم سعيد على أن لم يسمع كلامي، ثم حضر مصطفى القشاشي وأحمد علام فمضينا في سيارة شوقي إلى كرمة ابن هانى وكانت بالمطرية وفي الطريق دار الحديث من شجن إلى شجون وأتذكر أنه كان عاتبا على سعد زغلول وأنه كان معجبا بعبد اللطيف المكباتي، وأتذكر أيضا أنه كان معجبا بالدكتور طه حسين، وقد غضب عليه فيها بعد.

كانت كرمة ابن هانى بمعنى الكلمة وابن هانى هو أبو نواس وكان شوقي من المعجبين بأشعار أبي نواس، وقد عارضه بقصيدة من قصائده الجياد.

انطلق شوقي يتحدث، ولم يكن من عادته أن يطيل الحديث يتحدث في شئون كثيرة ضاعت من ذاكرتي مع الأسف وكان من لحظة إلى لحظة يقوم لمناجاة (سيس) وهو اللقب الذي خلعه على ابنه حسين.

ثم حضرت المائدة وهي أعاجيب من الألوان وقد دهشت حين رأيت شوقي يأكل الحمام بالشوكة والسكين ولا يبقى منه شيئا، وقد استأذنته في أن أكل الحمام بيدي فسمح، لأنى لم أكن أعرف أن الحمام يؤكل بالشوكة والسكين.

وفي العصرية مضى بنا شوقي بسيارته إلى القاهرة، واستوقف السائق لحظة

ليقول:

هذه أملاكي بين المطرية والقاهرة فقلت: إنها أملاكي أنا وإن اعترضت فسأرفع عليك قضية.

فقال شوقي: إنها هبة مني إليك، فقلت: أنت تهب ما لا تملك يا أمير الشعراء.

كان شوقي يقول: أنا أحبك يا دكتور مبارك، أحبك إلى حد العشق وأشتهي أن أراك كل يوم، فما عرفت في حياتي رجلاً أصدق منك، فهل تبخل بأن أراك كل يوم؟

فقلت: أنت أستاذي يا شوقي باشا، وكنت عنده رتبة أعظم من رتبة الباشوية.

وقال شوقي: أنا أنتظرك في الساعة الحادية عشرة في الصباح بمكتب الدائرة ٨ شارع جلال وفي الساعة الحادية عشرة بالضبط يحضر شوقي وقد أعد له خادمه فنجانا من الشاي يثور عليه البخار وأقراصا من (الكرواسان) يهديها إلى زائريه بغير حساب ثم يقرأ الخطابات الواردة عليه بسرعة ويمضي معي إلى حيث يشاء.

نمضي من هنا ونمضي من هناك، ونجتاز جميع الدروب إلى أن نصل إلى جسر قصر النيل.

هنالك يقف شوقي فيبكي بكاء الأطفال ويغمغم (من أي عهد في القرى تتدفق).

وهي أعظم قصيدة قالها شاعر في وصف النيل ثم تتخاذل قواه فيرجو أن أحمله إلى المكتب وهو في ذهول ما بعده ذهول وكان شوقي نحيفا إلى حد الهزال، صحبت شوقي مدة تزيد على ستين عرفت الشاعر معرفة حقيقية، وكان تحفة في سلامة الذوق ومثانة الأخلاق، طلب مني رحمه الله أن أكتب مقدمة للشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات يراعى فيها التلطف، وأنا أكره أن أتقيد برأيي قد أنكره فيما بعد حين أجد قصيدة ضعيفة توجب الهجوم عليه فقال شوقي بالفرنسية جملة معناها (وأنا لا أفرض أي شيء) وفي المساء لقيت الدكتور طه حسين وكان جاري بمصر الجديدة وقصصت عليه ما دار بيني وبين شوقي فتجههم وجهه وقال: يظهر أن رأيي فيك لن يتغير يا دكتور زكي، وهو أنك رجل عيب، أنا خاصمت شوقي وخاصمني وهو يغدق الأموال على كتاب ماجورين يشتموني في الجرائد والمجلات، ولو أنه اقترح أن أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف لأن شوقي في رأيي هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي.

فقلت: انا أرى أنه أشعر من المتنبي فقال الدكتور طه: ما دام هذا رأيك فما الذي يمنعك من أن تكتب المقدمة؟! فقلت: لأحفظ بحقي في نقده حين يخطئ.

فقال الدكتور طه: إن شوقي لا يخطئ فقلت: اسمع يا سيدي الدكتور هذا البيت وهو من قصيدة قالها شوقي بعد العودة من منفاه:

وكل مسافر سيئوب يوما إذا رزق السلامة والإيابا

فقال الدكتور طه: هذا بيت جميل فقلت: إن سيدي الدكتور من ذرية الرسول عليه الصلاة والسلام وفيه قال الله في كتابه العزيز: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له} فالمفروض يا سيدي الدكتور أن المسافر سيئوب إذا رزق السلامة والإيابا، فليس في البيت معنى جديد. فضحك الدكتور طه ودعا زوجته وقال لها بالفرنسية خلاصة الحديث فابتسمت وقالت: جزاؤه فنجان من الشاي وأنا أدعوه للمشاركة في طعام العشاء فقلت: أنا اتغديت والطعام بالليل يؤذي أمعائي.

في سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة تكريمية لشوقي حضرها وفود من شعراء الأقطار العربية، كان موسما من ألطف المواسم، والاشترك فيه جنيه مصري، فدفعت الجنيه عن طيب خاطر إكراما لأمر الشعراء، كانت الحفلة في دار الأوبرا الملكية وفيها ألقى حافظ إبراهيم قصيدة جاء فيها:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا وهذي وفود الشرق قد بايعت

فوثب شوقي وقبل حافظا على خديه، وكان غريبا أن يعترف حافظ بشاعرية شوقي فقد كان حافظ أذكى من شوقي بمراحل طوال، وأشعر منه بلا جدال، وسيقول التاريخ بما أقول بعد زمن أو أزمان.

كانت الحفلة الختامية بكرمة ابن هانئ الجديدة وهي على شاطئ النيل في أشباه الحفلات الرسمية، وتخيرات مكاني فاخترت مكانا ليس فيه خمر، وكان المكان هو الحجرة التي يجلس فيها المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش أعظم من كتب في ذم الخمر، ولكنني أسمع همسا في أذن الشيخ جاويش من الشيخ محمد عبد المطلب وهو يقول: هذا زكي مبارك تلميذ طه حسين، فوقفت وقلت

للشيخ جاويش: أنا اخترت هذا المكان من أجلك، لأشرب معك الماء القراح، لكن الشيخ عبد المطلب يغتابني عندك، لأنني دفعت شره عن الدكتور طه حسين بمقالات نشرتها في جريدة المقطم والأهرام، وهي مقالات أملاها قلبي على قلمي، وسأمضي لأسكر مع السكرى، فليس لبني آدم في هذا العصر أخلاق.

قال الشيخ جاويش وهو يسترضيني: إن الشيخ طه كان محررا في جريدة الهداية الإسلامية وهي مجلتي، وأعظم مقالة نشرها عندي هي (النهي عن التزاوج من الأجنبية) فكيف يتزوج من أجنبية؟ فقلت: إن الزمن تغير يا فضيلة الأستاذ.

فقال الشيخ جاويش وهو غضبان: إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا لأننا فلاحون، والمغاربة لا يتزوجون بناتنا لأننا مصريون، وكان يجب أن تلاحظ أنني أبغض المسيو طه حسين.

فقلت: أنا أيضا أبغض هذا المسيو، فييني وبينه خلاف، وستسمع أنباء بعد حين.

فضغط الشيخ جاويش على يدي وقال: سيجعل الله كرسي الأستاذية بكلية الآداب إليك وستكون أنت عميد كلية الآداب وليس على الله بعزير أن يجعلك مدير الجامعة المصرية.

فقلت: هذه بشارات لطيفة، ولكن الشيخ عبد المطلب جرحني، وسأسكر مع السكرى لأستريح من هذا التجريح، فأنشد الشيخ جاويش:

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أهلك ما شفاكا

فقلت: لن أشرب الخمر إكراما لك ولكنني أحب أن أخرج من هذا المكان.

نكتب التاريخ قبل أن يضع التاريخ.

خرجت إلى حجرة ثانية فوجدت حمد باشا الباسل وعلي باشا الشمسي جالسين وأمامهما زجاجات فيها ماء أصفر، فتوهمت أنه الويسكي، وقد دعاني الشمسي باشا إلى الجلوس ولكنني اعتذرت. وكان الباسل باشا والشمسي باشا صديقين حميمين، فقد رأيتهما بعد رجوعي من باريس في سنة ١٩٣١ ينادمان في مشرب بافاريا، وكان مكانه بشارع فرّاد في المكان الذي تقوم فيه اليوم عمارة ضخمة تحتها قهوة الشمس، وهي قهوة سخيقة لأنها لا تقدم للزبائن غير القهوة المرة، أو لأنها كانت ملتقاي مع الدكتور منصور فهمي باشا حين يطيب له أن يأخذ رأيي في بعض الأمور، كنت أستحيي من شرب الخمر في حضرة الدكتور منصور، كان هو يشرب الخمر وأنا الماء وقد عزم مرة ومرتين أن أشرب معه فرفضت بحجة أنه لا يجوز للتلميذ أن ينادم الأستاذ، ولست تلميذ الدكتور منصور، وإنما أنا ولده الروحي، ولا أعرف كيف كانت تصير حياتي لو لم أعرف هذا الأستاذ النبيل.

وأنا مدين للدكتور منصور فهمي بديون ثقال، فهو الأستاذ الذي رباني كان حفظه الله يملي الأسئلة التي ستواجهني في امتحانات الليسانس ويطلب

مني أن أعدها إعدادا قويا فأتعب في تحضير الإجابات تعبا لا يحيطر في البال وذلك أسلوب في التعليم نقلته عن الدكتور منصور فهمي.

أترك هذا وأذكر أني رأيت في الحفلة جماعة من تلاميذي بالجامعة المصرية وأمام كل تلميذ زجاجة من الويسكي فتقرزت مما رأيت، وامتنعت عن الشراب وكان يجب أن يغني الموسيقار محمد عبد الوهاب فحضر شوقي ليسمع، حضر وهو نشوان، وكان في الحفلة المغني صالح عبد الحفي وقد شرب حتى سكر فكان يصيح: غني يا محمد غني، غني يا ولدي حلوا يا جميل..؟

جناية زوجية

كان سعد زغلول هو رئيس الشرف للحفلة التي أقيمت لشوقي ثم تظهر جريدة البلاغ وفيها مقالة افتتاحية بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد وبها زعم أن الأمة التي تحتفل بشوقي لا تعرف معنى الكرامة، فدعاه سعد إليه وقال: كان يجب يا أستاذ أن تلاحظ أن الحفلة تحت رياستي فقال العقاد: أنت لا تفهم الشعر يا باشا، فقال سعد: أنا لا أعرف الشعر، وإنما أعرف الذوق وأحب أن تكون هذه آخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول.

ودعا سعد باشا الأستاذ عبد القادر حمزة لزيارته ليقول: في صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة في شتم أمير الشعراء أحمد شوقي؟ فقال الأستاذ عبد القادر حمزة: الشعر للشعراء وأنا أبيع لكل كاتب أن يكتب ما شاء.

سعد باشا في تحرير البلاغ

كان سعد زغلول يعرف أن الرجل عبد القادر حمزة فقير، إلا من الشرف فكان يشاركنا في تحرير جريدة البلاغ، كل ما نشره البلاغ تحت حرف (س ١٠) فهو من إنشاء سعد زغلول، وهي مقالات محفوظة بمجموعات البلاغ، وذلك مما يجهل أبناء هذا الجيل، وما أكثر ما يجهل أبناء هذا الجيل.

الكاتب الجبار

زعم الأستاذ العقاد بعد موت سعد باشا أن سعدا كان يسميه الكاتب (الجبار) وكنت أستغرب من هذا وأقول: كان يجب أن يذاع هذا الوصف وسعد حي، أما التقول على سعد بعد الموت فهو ضرب من الخيال ورأبي في العقاد ليس بالرأي الطيب، فقد كنا زميلين في تحرير جريدة البلاغ وزميلين في تحرير مجلة الرسالة، وما قرأت مقالة أَرْضَتَنِي فهل كان سعد من الجهل بحيث يخلع عليه لقب الكاتب الجبار؟

ثم تظهر الحقيقة المؤذية، والقول الحق إيذاء في إيذاء.

ظهرت الحقيقة حين أصدرت مجلة الثقافة عددا خاصا عن سعد زغلول، وكان الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد، وكان يدون مذكرات يومية عن حياة سعد، فدعته مجلة الثقافة لتقديم كلمات في تلك المذكرات. قال الأستاذ كامل سليم في مذكراته أن سعدا كان يسمي الأستاذ عبد القادر حمزة (الكاتب

الجبار) وأنه سأل سعد باشا عن سبب تسميته بهذا اللقب فقال: عبد القادر كاتب مفحم وكتابته لا تقوم على الزخرف وإنما تقوم على المنطق.

عبد القادر وشوقي

كنت أرسل إلى البلاغ مقالات من باريس، فأرسلت ثلاث مقالات في نقد الجزء الثاني من الشوقيات وكان الدكتور زكي حسن قدمه إلي لأطلع عليه فلم يعجبني باب النسب، فكتبت تلك المقالات.

ولكن خطابا يصل بالبريد الجوي بخط الأستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول:

إن شوقي مريض ونقد شعره من كاتب في مثل منزلتك الأدبية يؤذيه،
وحين يعافيه الله من المرض سأشر هذه المقالات بنصها الأصيل وحين مات
شوقي رثاه عبد القادر بمقالة افتتاحية في البلاغ قال فيها: إن شوقي فتح لمصر
ممالك لا تستطيع فتحها بالجيش والأساطيل، كان عبد القادر يحترم شوقي
وكان ينشر قصائده في البلاغ بحروف كبيرة ومشكولة، ولم يصنع هذا الصنيع
مع غيره من الشعراء.

سألت شوقي مرة عن رأيه في عبد القادر فقال: هذا كاتبنا الأول.

بين شوقي وحافظ

كان التنافس شديدا بين شوقي وحافظ، وكان شوقي يغار من حافظ
بصورة بغیضة، ولم يسمح بأن يقول فيه كلمة جميلة.

كان حافظ رئيسي يوم كنت موظفا بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، وكان يختصني بالعطف ويسمعني ما ينظم من الشعر، وفي كل قصيدة يقول: هذه آخر قصيدة يا مبارك فلتكن أعظم قصيدة وعليك أن تصحح ما فيها من الأغلط، حاولت أن أصحح فلم أستطع، فقد كانت طاقة حافظ الشعرية طاقة قوية وكنت بالنسبة إليه طفلا لم يشب عن الطوق.

وكان عندي من الشيطنة ما يبيح التندر بحافظ فأقول: أخبرني أحد أصدقائي أنه رأى شوقي يدخن السجائر في الطريق، فيزعج حافظ ويقول: إن هذا المجنون ينظم شعرا، وتلك داهية الدواهي فتعال معي.. (ويدخل فيأخذ أذنا من مدير الدار وهو المغفور له الدكتو صادق أبو هيف الذي فقد مشروع ملتر بأبحاث جيدة أوجبت أن يتلقى من سعد زغلول خطاب ثناء) نسير إلى النيوبار فيطلب حافظ (شيشه) ويكركر فيها بأسلوب فظيع، ثم يقول: أنا أعرف أنك من أصدقاء شوقي، ولا أعرف كيف تصادق هذا المخبول، إن الناس منذ خمسين سنة يقولون: حافظ وشوقي كما يقولون بيض وسميط، فكيف يريد شوقي أن يفصل مني؟ فأقول: أنا لا أعرف ألنائم، ولن أبلغ شوقي بهذا الكلام.

الموت يميت الأحقاد

كان شوقي يصطاف بالإسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة التجارية ليستوحي الأمواج فقرأ في جريدة البلاغ أن حافظا مات فغام وجهه وأنشأ أعظم قصيدة قالها في الرثاء:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة
 وودت لو أني فداك من الردى
 الناطقون عن الضغينة والهوى
 من كل هدام وبينني مجده
 ما حطموك وإنما بك حطموا
 انظر فأنت كأس شأناك باذخ
 يا مانح السودان شرخ شبابك
 لما نزلت على خمائله ثوى
 قلده السيف الحسام وزدته
 قدر وكل منية بقضاء
 والكاذبون المرجفون فدائي
 الموغرو الموتوع على الأحياء
 بكرائم الأتقاض والأشلاء
 من ذا يحطم رفرف الجوزاء
 في الشرق واسمك أرفع الأسماء
 ووليه في السلم والهيحاء
 نبع البيان وراء نبع الماء
 قلما كصدر الصعدة السمراء

وهذه قصيدة. نظمها شوقي وهي في الجزء الثالث من الشوقيات فليرجع إليها من يريد الاستقصاء، فأنا لا أريد إبهاء قراء البلاغ بدموع أحمد شوقي على غريمه حافظ إبراهيم.

شيخنا شوقي

كنت ألفت مع الدكتور زكي أبو شادي جمعية شعرية سمينها جمعية أبوللو، واخترنا أن يكون الرئيس أحمد شوقي أمير الشعراء وكانت دار الجمعية بمنزل الدكتور أبو شادي بالمطرية، وكان شوقي يحضر لحظات ثم ينصرف، وكان الدكتور أبو شادي يرحوه أن يسمع القصائد التي يجوز نشرها في المجلة فيقول: الدكتور زكي مبارك فيه الكفاية، فأقبل يده كما كنت أقبل يد أبي.

وكان شوقي في آخر أيامه يقضي في كل مساء لحظة أو لحظتين بجريدة الجهاد، لأن الأستاذ توفيق دياب سمى جريدته بلفظة من ألفاظ شوقي: إن الحياة عقيدة وجهاد، خرج شوقي من دار الجريدة وهو مكروب فتعشى في مطعم الكورسال ومضى إلى بيته ليموت، في اللحظة التي مات فيها شوقي كانت الأنسة ملك تغني: يا حلوة الوعد ما نساك ميعادي، وهي قصيدة أهداها شوقي إلى ملك بخطه الجميل، وفي صباح الجمعة كان يجب أن أحضر حفلة الافتتاح بمشروع القرش في العباسية لأرى وجه الدكتور علي باشا إبراهيم، ولألقي قصيدة شوقي بصوتي ولكن ملحق جريدة الجهاد يصل إلينا على غير ميعاد وفيه أن شوقي مات. مضيت بسرعة إلى البيت فوجدت الدكتور أبو شادي في انتظاري وعليه ثياب سود.

قلت: عظم الله أجرك يا دكتور زكي، فقال: وعظم الله أجرك يا دكتور زكي، مضيينا ننتظر وصول النعش بميدان الإسماعيلية في الساعة الرابعة من ذلك اليوم المشؤوم، أراد الحانوتية أن يحملوا النعش فرفضنا أن يحملوه وتقدمت أنا والدكتور أبو شادي فحملنا النعش وكان أخف من ريش النعام، لم يكن المشيعون يزيدون عن أربعة عشر شخصا.. ثم جاءت سيارة تنقل جثمان الشاعر إلى مثواه الأخير فأخذنا سيارة ومضيينا معه إلى القبر وألقيت عليه آخر نظرة.

كيف كان يعيش شوقي؟

كان رحمه الله مدمنا على التدخين وكان يضع السيجارة في ميسم من الكهرمان، وما رأيت بدون سيجارة وكان يشرب الشاي من وقت إلى وقت

وكان مغرماً بأكل البيض كان يأكله نيئاً عند نظم الشعر، وبه أوصاني ولكن الله ابتلاني بالمصران الأعور فمنعني هذا الغذاء الني لأن صفار البيض يرقد في المصران، ولم يكن شوقي يستحم بالماء كما يستحم الناس والحيوان وإنما يستحم بالكولونيا، وكانت خادمتها هي زوجته وتقدر مواعيده الغالية، ولم يكن شوقي يفطر في البيت وإنما يمضي مع الشروق فيفطر في مطعم صولت بشارع بولاق واسمه اليوم شارع فؤاد وكان في مكان يجاور القهوة المسماة بالأمريكين. ومما يغيب عن بعض العرب أن الأمريكين ليس معناها الأمريكيون وإنما معناها الشرب على الطريقة الأمريكية وهي أن يشرب الشاربون وهم واقفون، ولهذا ميزة عظيمة وهي إعفاء الشاربين من دفع البقشيش وهو في بعض الأحيان ثقيل، وكنت أشرب بهذه الطريقة في مشارب باريس، حين رأيت امرأة مجنونة تمسك بخناقي وتقول: إلى البار الأمريكي يا جان، إلى البار يا جان، وقد تخلصت منها بصعوبة وهربت وأنا بحمد الله من عقلاء المجانين.

وكان شوقي يحب أبناءه حبا شديداً، وكانت أول مواليدته اسمها أمينة وكان يضع صورتها في مكتبه وقد رأى طفلة في سنها وجمالها وهو في الباخرة فقال:

هذه نور السفينة هذه أخت أمينة

وكان رحمه الله يعطي أمينة كل ما في جيبه ويقول:

وكم قد خلت من أيبك الجيوب وليست جيوبك بالخالية

وهي قصيدة لم تسجل في الشوقيات وبعد أمينة جاء علي فقال:

صار شوقي أبا علي في الزمان الترتلي

وهي من القصائد التي أغفلها صاحب الشوقيات وكان مفتونا بشرب
 الويسكي ولم يكن يشربه إلا بعد منتصف الليل في البيت:
 رمضان ولي هاتها ياساقي مشتاقا تسعى إلى مشتاق
 ولم يكن يعرف ما رمضان أو شعبان فجميع الأشهر شوال.

أنطون الجميل

هو الأديب الفاضل بحق وصدق أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة
 الأهرام وهو من أكابر المؤمنين بعبقرية شوقي وقد أكرمه في الحياة وبعد الممات.
 ألقى محاضرة في الإسكندرية بالفرنسية عن شوقي زعم فيها أن الشعر
 العربي انقرض بعد شوقي فمضيت إلى بيتي ونظمت قصيدة بين الحب والحرب
 وهي قصيدة أعظم من جميع قصائد شوقي، موحيا وهو في دار الخلود.

لكي مبارك